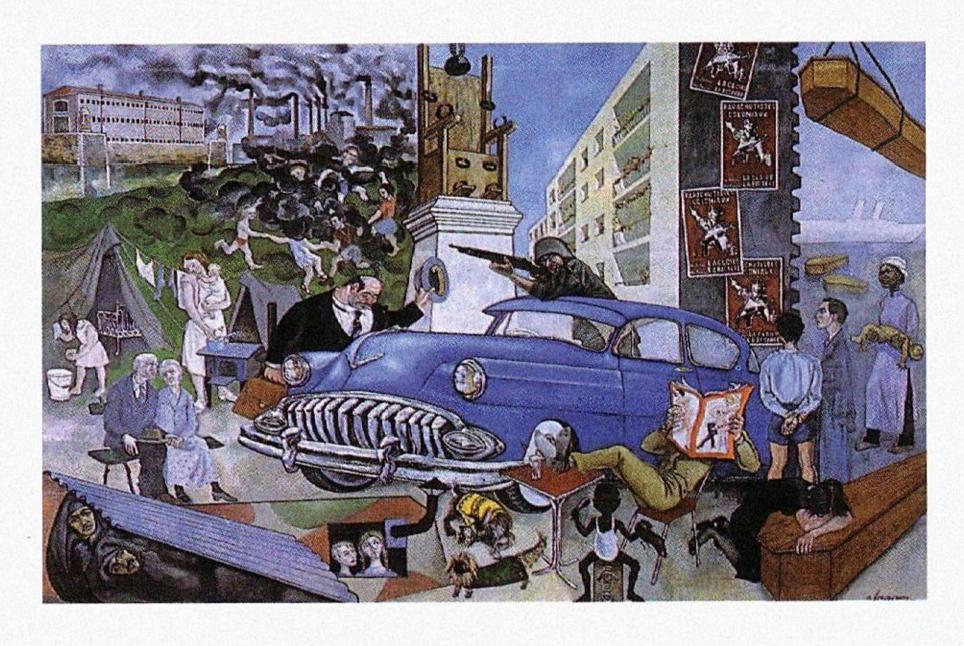
إدغار موران

هل نسير إلى الهاوية؟



ترجمة

عبدالرحيم حزل

أفريقيا الشرق

هذا الكتاب ترجمة عن النص الأصلي :
Vers l'Abîme ? D'edgar MORIN
Ed. l'Herne, Paris 2007.

تأليف: إدغار موران
ترجمة : عبدالرحيم حزل
عنوان الكتاب **هل نسير إلى الهاوية؟**
رقم الإيداع القانوني : 2012Mo 0244
ردمك : 978-9981-25-816-7
أفريقيا الشرق - المغرب
159 مكرر، شارع يعقوب المنصور - الدار البيضاء
المطبعة: الهاتف: 04 95 25 0522 / 13 98 25 0522 الفاكس : 20 25 29 0522
النشر والتصفيف: الهاتف: 53/54 67 29 0522 الفاكس: 72 38 48 0522
البريد الإلكتروني : E. mail : africorient@yahoo. fr

إدغار موران

هل نسير إلى الهاوية؟

ترجمة
عبدالرحيم حزل

أفريقيا الشرق

مقدمة خاصة بالترجمة العربية

إن كل واحد منا، حيثما يوجد من أنحاء المعمور، إلا وقد بات اليوم محكوماً بمصير أرضي جماعي. فنحن تواجهنا المشكلات الحيوية نفسها التي تعرض للنوع البشري كافة وتقع علينا التهديدات المميتة نفسها. وقد باتت سرعة المركبة الفضائية الأرض في تزايد، لا يحكمها تقنين، وفي سباق منفرد له أوجه متعددة هي العولمة والتغريب والتطور والنمو.

إنه سباق يضع المجتمعات التقليدية في أزمة، لكنه لايستثني منها الحداثة نفسها. وإذا فكرة التقدم التي كانت إلى عقود قليلة ماضية تبدو وكأنها القانون الجبار الناظم للتاريخ، قد باتت تترك مكانها للايقين وللمخاطر وصنوف التهديدات.

وهذا الكتاب يسعى إلى وصف سيرورة العولمة التي تعتبر أسوأ شيء (إذ باتت تحط من شأن التسابق «صوب الهاوية» بعد أن أطلقته) وأفضل شيء (فلأول مرة في التاريخ يمكِّن لنا المصير الأرضي المشترك أن نتصور «أرضا وطناً» لا تُلغي أوطاننا بل تجمعها وتحتويها). والكتاب يصور أوجه التعقد في السيرورات ويقر بالجوانب الإيجابية فيها، مثلما يكشف عن خصائصها السلبية. وهو يبين أن المحتملات كارثية، لكنه ينوه إلى أن غير المحتمل

قد وقع في التاريخ. وينوه كذلك إلى أننا «حيثما نعتقد بوجود المخاطر فهنالك يوجد كذلك ما ينقذ ويخلص» بتعبير هولدلين بمعنى أن المخاطر التي صارت تزداد تبدياً قد باتت تسعف كذلك على استيعائها بأوجه متعددة، وهو وعي ربما كان باعثاً على الأعمال المخلِّصة منها.

وإنني لسعيد بصدور هذا الكتاب في المغرب الذي لي فيه أصدقاء كثُر، ولا يبخل عليَّ من آيات التكريم والاحتفاء. وإن من شأن هذه الترجمة العربية كذلك أن تتعدى نطاق المغرب فتعود عليَّ بأصدقاء جدد سيجدون في هذا الكتاب تعبيراً عن تساؤلاتهم وترجمة لانشغالاتهم. وإنني لعلى بينة من الظلم الواقع في عدم تفهم الغرب للعالم العربي والإسلامي، فلذلك تراني لا أفتأ أعمل من أجل إحقاق العدالة ومدِّ جسور التفاهم بين الشعوب.

إدغار موران

Chacun de nous, en quelque lieu qu'il se trouve, est désormais inclus dans une même communauté de destin planétaire; nous sommes affrontés aux mêmes problèmes vitaux pour notre espèce, nous subissons les mêmes menaces mortelles. Le vaisseau spatial Terre est emporté à une vitesse accélérée, sans nulle régulation dans une course unique dont les diverses faces sont mondialisation, occidentalisation, développement, croissance.

Cette course met en crise les sociétés traditionnelles mais aussi la modernité elle-même. L'idée du progrès qui a semblé, il y a encore peu de décennies, une loi irrésistible de l'histoire, a fait place à l'incertitude, aux risques et aux menaces.

Ce livre essaie de décrire les processus de la mondialisation qui est à la fois la pire des choses (par les dégradations et la course «vers l'abîme» qu'elle provoque) et la meilleure des choses (puisque pour la première fois dans l'histoire une communauté de destin planétaire nous permet de concevoir une «terre-patrie» qui non pas supprime mais englobe nos patries). Il en décrit les complexités des processus, en reconnaît les caractères positifs, mais met en lumière les caractères négatifs. Il nous montre que les probabilités sont catastrophiques, mais il rappelle que l'improbable est souvent advenu dans l'histoire. Il rappelle également que «là où croît le péril croît aussi ce qui sauve»

comme disait le poète Holderlin, c'est-à-dire que le péril devenant de plus en plus perceptible permet les prises de conscience qui susciteraient les actions de salut.

Je suis très heureux que ce livre soit publié au Maroc où j'ai tant de fidèles amitiés et où j'apprécie les vertus d'honneur et d'hospitalité exceptionnelles. Au-delà du Maroc cette traduction en langue arabe me donnera les nouveaux amis qui trouveront dans ce livre l'expression de leurs interrogations et de leurs préoccupations. Je sais l'injustice et l'incompréhension de l'Occident à l'égard du monde arabo-musulman et je suis sans relâche intervenu pour la justice et la compréhension entre les peuples.

Edgar Morin

هل نسير إلى الهاوية ؟

لقد مَكَّنَ التقدم العلمي من إنتاج الأسلحة النووية وأسلحة أخرى للدمار الشامل، كيماوية وبيولوجية، وأتاح لها الانتشار الواسع . وتسبَّب التقدم التقني والصناعي في مسلسل من التدهور في المحيط الحيوي. وخلقت عولمة السوق الاقتصادية المفتقرة إلى تقنين خارجي وإلى تقنين ذاتي حقيقي، جُزَيْرَات جديدة من الثراء، وخلقت مناطق متنامية من الفقر كما في أمريكا اللاتينية وفي الصين. وقد كانت هذه العولمة ولا تزال كذلك سبباً في خلق أزمات لا تفتأ في تناسل، وتسير في اتساع واستشراء حتى باتت تتهدد بالفوضى والسديم. وقد صارت أشكال التطور الواقعة في العلوم والتقنيات والصناعة والاقتصاد، وهي المحرك اليوم للمركبة الفضائية الأرض، لا يحكمها شيء من سياسة ولا أخلاق ولا فكر.

ويمكن اعتبار الاتساع والتسارع اللذين سارت إليهما هذه العمليات المتأبية عن أي رقابة بمثابة تغذيات استرجاعة (مفعولات ارتجاعية) إيجابية، وهي تشكل إعاقة للتقنينات عن طريق الاتساع والتسريع اللذين نراهما في أشكال التطور المحمومة. وهكذا فإن ما كان يُفترض أن يضمن التقدم البشري يحمل بحق أوجهاً من

انتقدم المحلي وإمكانيات لتقدم مستقبلي، لكنه يخلق مخاطر قاتلة للبشرية ويفاقم منها.

ومن غريب أن هذه التطورات ترافقها أوجه عديدة من التراجع تتبدى لنا في صورة كأنها ارتداد إلى الهمجية.

لقد صارت الحروب في استشراء على كوكب الأرض وباتت تغلب على معظمها الأسباب والدوافع العرقية والدينية. فأينما وليت وجهك رأيت النظام في تراجع والعنف يكتسح بشتى أشكاله المناطقَ الواقعة في ضواحي المدن. وأصبحت الجريمة المافيوزية ممارسة جارية في سائر أنحاء المعمور. وبات قانون الانتقام بديلاً عن قانون العدالة، بزعم أنه العدالة الحقة. وغدت التصورات المانوية تستحوذ على الأذهان؛ وتصوَّر وكأنها هي العقلانية. ويجوز لنا أن نعتبر هذا التنامي للسيرورات التراجعية بمثابة تغذية استرجاعية إيجابية مفكِّكة، تتضافر مع تغذية استرجاعية إيجابية للمحرك الرباعي الذي مكوناته العلم والتقنية والصناعة والاقتصاد. وتطلع علينا الهمجية الحقودة من أغوار التاريخ لتتكالب مع الهمجية التي لا نعرف لها صفة؛ تلك الهمجية الباردة الصقيع المتمثلة في التقنية الخاصة بحضارتنا. وإن في تحالف الهمجيتين لما يتهدد كوكب الأرض.

وقد كنت أشرت قبل وقت طويل إلى أن الشرق الأوسط يقع في قلب منطقة زلزالية تمتد إلى جماع الكرة الأرضية؛ كانت تتواجه فيها الأديان في ما بينها، وتتواجه فيها الأديان واللائكية، ويتواجه فيها الشرق والغرب والشمال والجنوب، وتتواجه فيها البلدان

الفتية الفقيرة مع البلدان الغنية العجوز. والصراع الإسرائيلي الفلسطيني، الواقع في قلب هذه المنطقة الزلزالية، يشكل من نفسه سرطاناً يوشك أن ينتقل ليعم أصقاع المعمور. ولقد لاحت لنا بالفعل العلائم المنذرة بهذا الأمر على أثر التطورات الجديدة التي نجمت عن زيارة شارون لباحة المسجد الأقصى، فاندلاع «الانتفاضة الثانية» وتوقف مفاوضات كامب دفيد، والاجتياحات المكثفة التي صارت القوات الإسرائيلية تقوم بها في الأراضي الفلسطينية كلها أمور تشكل دائرة جهنمية ما عاد في الإمكان اليوم حصر مداها. ذلك بأن القمع الفتاك الذي تنتهجه إسرائيل قد أطلق موجة من العداء لليهودية لم يسبق لها مثيل في العالم الإسلامي جاءت لتبتعث الموضوعات التي كانت مثاراً للعداء المسيحي لليهودية (التضحية بالأطفال الغوييم في عيد الفصح اليهودي) والعداء الغربي لليهودية القومية (المؤامرة اليهودية للهيمنة على العالم)، وعم العداء لإسرائيل حتى صار عداء لليهود. وكذلك أطلق العنف الأعمى الذي يحرك الانتحاريين موجة من العداء للإسلام لم يقتصر على إسرائيل وحدها، بل امتد إلى الغرب أيضاً، ولم يقتصر على يهود الشتات وحدهم بل صار يعم كثيراً من الأوساط المختلفة، كما يشهد عليه كتاب أوريانا فالاسي[1] ضد الإسلام. فهي قد اختصرت هذا الدين في الفرع المتعصب والرجعي منه. ولن يكون لتفاقم هذه الوضعية إلا أن يخلق بؤراً جديدة للصراع في صلب الأمم. وقد ظلت فرنسا

1 - Oriana Fallaci *La Rage et l'orgueil,* Plon, 2002.

بالنسبة الكبيرة من ساكنتها ذات الأصول الإسلامية وساكنتها غير الهينة ذات الأصول اليهودية، إلى اليوم تحول دون أن تتفجر في هوامش مدنها أشكال العنف التي يطلقها الشبان الفرنسيون من ذوي الأصول المغاربية وتمنع من التبريرات القمعية الإسرائيلية التي يسوقها الممثلون لما يسمى «الجماعة اليهودية». لكن تفاقم الصراع الإسرائيلي الفلسطيني سيؤدي إلى مواجهة وقودها الكراهية والعنف، وستصير فرنسا اللائكية مسرحاً لحرب عرقية ودينية تتواجه فيها فئتان من المواطنين. وزيادة على ذلك فعلى الرغم من أن تأسيس [تنظيم] القاعدة لا يتصل بشيء بالصراع الإسرائيلي الفلسطيني فلقد صار هذا التنظيم، بعد ما كان من الاعتداءات التي شهدتها كينيا، يتبنى القضية الفلسطينية العادلة لخدمة سعاره الإرهابي غير العادل. وإن العماء الذي أصاب أكبر مسؤول في أكبر قوى غربية يقوده، كالذي يتعلم السحر، إلى مواصلة إطلاقه لكل الهياجات المتأبية عن أي عقال، بدءاً بتلك التي تتهدد المحيط الحيوي وانتهاء بتلك التي تخدم قضايا الإرهاب، بسبب من تلك الحرب العمياء التي يشنها على نتائج الإرهاب [دون أصوله]. ولو استمر الأمر على هذه الحال فستتعزز موجات العداء لليهودية وموجات العداء للإسلام، وستسود المانوية في صورة صدام همجيات يزعمون له أنه «صدام حضارات».

لقد اعتور الضعف قوى المقاومة. فهذه أوروبا قد باتت عاجزة عن أن تفرض سياستها، وعاجزة عن أن تنمي نفسها فيما تعيد تنظيم نفسها، وعاجزة عن أن تستحضر أن تركيا قد كانت قوة

أوروبية كبيرة منذ القرن السادس عشر، وأنه قد كان للإمبراطورية العثمانية إسهام في الحضارة الأوروبية. وغاب عنها أن المسيحية هي التي أبدت في الماضي تعصبها نحو كل دين عداها، وأن الإسلام الأندلسي والإسلام العثماني قد كانا متسامحين مع المسيحية ومع اليهودية. إن الأمم لا تستطيع أن تصمد للتدفق الذي يغمر كوكب الأرض، إلا بالانغلاق في صورة رجعية على دينها وعلى قوميتها. والأممية المواطنة الناشئة تعاني من ضعف شديد. ولم يظهر بعد مجتمع مدني على صعيد كوكب الأرض. وإن الوعي بمصير أرضي يشترك فيه الجميع لا يزال في تشتت كبير.

ونحن نرى فكرة التنمية، حتى التي يقال لها «مستدامة»، تجعل من حضارة مأزومة النموذج المحتذى، وهي نفسها حضارة ينبغي إصلاحها. فهي تعيق العالم أن يهتدي إلى أشكال من التحول غير تلك المستنسخة من النماذج الغربية. وتزيد في قوة جميع أنواع التغذية الاسترجاعية الإيجابية التي سلفت إشارتنا إليها. كما وأنها تقود المجتمعات في سبيل تؤدي بها إلى الكارثة، والحال أنه ينبغي تغيير السبيل والشروع في بداية جديدة.

إننا نمضي صوب الكارثة. وذلك أمرٌ قد أجاد ج. ب. دوبي التعبير عنه في كتابه «**من أجل كارثية متنورة**»[2].ثم إنه يدعونا ويا للغرابة، إلى أن نقر بحتمية حدوث الكارثة لكي نسعى إلى تلافيها. لولا أننا نرى الشعور بالحتمية قد يؤدي إلى السلبية

2- J.-P. DUPUY, *Pour un catastrophisme éclairé*, Seuil, 2002.

ناهيك عن أن دوبي يتجنى في مطابقته المحتملَ بالمحتوم. إن المحتمل هو ما يرى ملاحظ قد توفرت لديه المعلومات الموثوقة في زمن ومكان معلومين، أنه السيرورة المستقبلية. وبطبيعة الحال فإن جميع السيرورات الحالية تقود إلى الكارثة. لكن غير المحتمل يظل ممكناً، وقد بين لنا التاريخ الماضي أن غير المحتمل يمكنه أن يحل محل المحتمل، على نحو ما وقع في أواخر 1941 ومطلع 1942 عندما أُلغي المحتمل في 1940-1941 المتمثل في هيمنة الإمبراطورية الهتلرية على أوروبا لفترة طويلة، ليحل محله محتمل جديد أحال الأول شيئاً غير محتمل؛ نريد به انتصار الحلفاء على ألمانيا النازية. والواقع أن جميع المستجدات الكبرى التي وقعت في التاريخ قد كانت منحرفة وحطمت الاحتمالات التي كانت قائمة قبل أن تصير إلى ما صارت إليه من تطور. كذلك كان الشأن في رسالة المسيح وبولس ورسالة محمد والتطور الذي عرفته الرأسمالية، ومن بعده التطور الذي عرفته الاشتراكية.

فيكون الباب قد أصبح مفتوحاً على غير المحتمل، حتى وإن كانت الفوضى العالمية المتزايدة تجعله في الوقت الحالي شيئاً غير معقول.

والحال أن هذه الفوضى التي توشك أن تسقط فيها البشرية تحمل لها في ذاتها فرصتها الأخيرة. لماذا؟ لأن علينا أن نعرف أنه متى أصبح نظام من الأنظمة عاجزاً عن معالجة مشكلاته الحيوية فإما أن يتفكك وإما أن يكون قادراً، في تفككه نفسه على أن يتحول إلى نظام متحول شديد الغنى وقادر على معالجة مشكلاته. ومن

ههنا تظهر فائدة التغذية الاسترجاعية الإيجابية علينا. فالتغذية الاسترجاعية الإيجابية تؤدي في العالم الفيزيقي حتماً ولزوماً إلى التفكك أو إلى الانفجار. وأما في العالم البشري وكما أشار ماغورو ماروياما*، فإن التغذية الاسترجاعية الإيجابية تقوض بنيات قديمة بالية، فيمكن أن تكون سبباً في ظهور قوى للتحول والتجدد. ولنا في تحول الدودة إلى فراشة استعارة جديرة بالاعتبار. فعندما تدخل الدودة في الشرنقة تبتدئ عملية من التدمير الذاتي لجسم الدودة فيها، ويتم في تلك العملية كذلك تكون جسم الفراشة، الذي هو الجسم نفسه وجسم آخر غير جسم الدودة في آن واحد. وذلك هو التحول. إن تحول الفراشة هو تحول ما قبل منظم. وأما تحول المجتمعات البشرية إلى مجتمع عالم فهو شيء عرضي، وغير مؤكد وخاضع لمخاطر السديم، مع أنه ضروري له».

وإذا صح أنه مثلما أن جهازنا العضوي نفسه يشتمل على خلايا جذعية يصعب التمييز بينها، وقادرة كشأن الخلايا المضغية على أن تخلق مختلف الأعضاء في كياننا، فكذلك تمتلك البشرية في ذاتها الفضائل الجنسية التي تتيح تخلقات جديدة. وإذا صح أن تلك الفضائل قد انطمرت ودفنت تحت ركام التخصصات وشتى أنواع التصلبات في مجتمعاتنا فإن الأزمات المعممة التي تهزها وتهز

---

*-(هـ . م) Magoroh Maruyama جامعي ياباني متخصص في السبرنطيقا "الثانية".

من دراساته:

«The second Cybernetics : Deviation-Amplifying Mutual Causal Processes», in *American Scientist* 51. (June 1963), Vol 51, pg. 164 -179, 250-256.

كوكب الأرض من شأنها أن تتيح حدوث التحول الذي بات شيئاً حيوياً. ولذلك ينبغي لنا أن نقلع عن السير في طريق «التطور». فينبغي أن نغير الطريق ونبدأ من جديد. وينبغي أن نصغي إلى العبارة التي قال فيها هايدغر : «إن الأصل لا يوجد وراءنا»، كما نصغي إلى نداء.

أزمة الحداثة

سأبتدئ بالتساؤل عن كلمة «الحداثة». فقد كانت *Moder-nus* في اللغة اللاتينية المحرّفة تدل على الشيء الطارئ قريب العهد. وما كان الطارئ والجديد يعتبران بشيئين فائقين، فما كان ذلك شأنهما في العصور الوسطى، ولا في القرن السابع عشر، كما لم يكن هو شأنهما في مطلع العصر الحديث. ومن ذلك أن الصراع الشهير الذي جمع القدامى بالمحدثين قد كان يدور حول معرفة هل يكون كتاب الوقت الراهن أفضل من الكتاب القدامى. وقد كانت الغالبية تؤثر جماعة القدامى لأنها تتصور القديم هو العمدة و الأساس، فلا يمكن أن يكون من هذا المنظور إلا الأفضل. فيكون الحديث يشكل انحطاطاً للقديم. ولقد شاعت هذه الفكرة في ثقافتنا ابتداء من جون جاك روسو وانتهاء بهايدغر، وإن ظلت فكرة هامشية، لأن الفكرة التي ستصير لها الهيمنة في نهاية المطاف هي القائمة على اعتبار الجديد هو الأفضل وأن الحديث، بما هو منتج ونتاج للجدة هو أفضل ما يوجد.

فلننظر إلى الاسم من زاوية العبارة «الأزمنة الحديثة». فمقررات التاريخ تعرِّف الحداثة بالاقتصار على استبعاد العصور القديمة. فتكون الأزمنة الحديثة تبتدئ بسقوط آخر إمبراطورية في

العصور القديمة، وهي الإمبراطورية البيزنطية في سنة 1453 أو سقوط القسطنطينية. وبعد ما كان مما نسميه استيعادياً بالعصور الوسطى، التي رسخت فكرتها في القرن التاسع عشر، كان الانبجاس التاريخي الذي حدث ابتداء من القرن السادس عشر والذي يشكل الأزمنة الحديثة. ليس هنالك تاريخ معلوم لميلاد هذه الأزمنة؛ فهل هي 1453 أو 1455، مع اختراع المطبعة على يد غوتنبرغ، أم1492 مع اكتشاف أمريكا على يد كولومب، أم هي 1520 عندما أثبت كوبرنيك أن الأرض ليست هي مركز العالم... ويمكننا أن نمثل بتواريخ أخرى كثيرة. والمهم هو أن في هذه الجزيرة الصغيرة الأوروبية الغربية قد حدث انبجاس ثقافي عجيب. وقد مكنت النهضة انطلاقاً من إحياء الميراث اليوناني من تجديد الفلسفة وتطوير العلم الحديث.

وفي الوقت نفسه فإن الأزمنة الحديثة يميزها الازدهار الاقتصادي والتجاري ثم الرأسمالي، كما تميزها بداية دخولها عهداً أرضياً نراه في التطور الحاصل في المبادلات والغلبة التي صارت لغرب أوروبا على العالم. ويميز الأزمنة الحديثة كذلك بروز [ترسخ] لأوائل الدول القطرية وإسبانيا وفرنسا وأنجلترا والبرتغال. ويميزها في الأخير تطور للفردانية. ويقوم بين هذه التطورات جميعاً تكامل وتعارض تشهد عليهما الصراعات الدائرة بين الأمم وبين الأديان وبين الأفكار.

وعليه فلكي نعرف هذا التنوع المضطرم، المتمثل في الحداثة ليس علينا أن ننطلق من عنصر وحيد، أو من مجرد تاريخ للميلاد

لأنه في الحقيقة مفهوم كبير غامض الحدود. وعليه فإن جوانب الحداثة متكاملة ومتعارضة. ومن ذلك أن العلم المعاصر ينطوي على تعارض. فكما بين بوبر لا يقوم هذا العلم بالبرهنة فحسب بل يقوم كذلك بالمضارعة بين الأفكار. ثم إن هذا العلم يقوم معارضاً للدين. فلقد ارتبطت التقنية بالعلم على مر الزمن، إلى حد أن صار يُتحدث في القرن العشرين عما يسمى علماً تقنياً. وأما الاقتصاد فهو يتطور من خلال المنافسة، وتتطور الدول القطرية من خلال صراعات متواصلة، ومع ذلك فإزاء هذا كله تتطور حضارة ستمتد على العالم برمته، طابعُها ومفتاحُها الفردانية.

والتعارض الأخير، المفارق، في الحداثة يقوم من جهة بين العهد الكوكبي الذي يراد له في ما يبدو أن يجانس بين كل شيء ومن جهة أخرى بين ظواهر البلقنة والانكماش ورفض هذه الهيمنة الغربية، وصولاً إلى الهياج الحالي.

فإذا نظرت إلى عالم الفكر رأيت النهضة وقت أن أصبح الله والطبيعة والإنسان والواقع مشكلات سنطلق استشكالاً لا ينقطع ولا يتوقف، سيكون هو السمة الكبرى للفكر الحديث وصولاً إلى الوقت الراهن، يرافقه بحث محموم عن الأساس. فابتداء من اللحظة التي لا يعود فيها وجود لهذا الله الذي هو أساس كل حقيقة يشرع الفلاسفة في البحث ثانية عن القاعدة التي يقوم عليها كل تصور ممكن.

يقوم ما أسميه حوارية، أريد بها علاقة من التضاد والتكامل ما بين الدين والعقل وما بين الإيمان والشك. والحقيقة أنها صراعات

مثمرة. فيمكن أن نتصور الإنسانية الحديثة قد جمعت من جهة الفكرة اليونانية التي تجعل من الأفراد مواطنين ممتلكين للعقل وبالتالي مستقلين وقادرين على توجيه المدينة بأنفسهم، كما كان شأنهم في أثينا، ومن جهة أخرى التصور المسيحي للإنسان الذي يجعل الإنسان على صورة الله كما في **التوراة**، ويجعل الله على صورة الإنسان كما في **الإنجيل**. ونحن نلاحظ في هذه العلاقة بين العقل والدين اتصالات عجيبة. فقد أدخل باسكال الشك في الإيمان بتلك المراهنة التي جاء بها، إذ لم يعد هنالك برهان مطلق على وجود الله. وأما من جهة أخرى فإن الطابع السماوي للدين يندرج بدوره في فكرة العقل والعلم والتقدم، وقد كانت الحالة الأغرب لهذا اللقاء بين الدين واللائكية هي المتمثلة في الشيوعية التي جاء بها ماركس؛ فهي دين للخلاص الأرضي يتغلف بغلاف المادية العلمية.

لقد انطبع الفكر الحديث بانفصال كبير، أجاد ديكارت التعبير عنه، بين مجالين باتا هائلين يتجاوزان كل المقاييس ذانكما هما مجال الفكر والذات والفلسفة من جهة ومجال المادة والامتداد والعلم والواقع التجريبي. ولم يقتصر الأمر على انفصال الاثنين بل إن كل واحد من هذين المجالين قد صار إلى تطور بمعزل عن الآخر. حقاً إن الجانب العلمي تكون له الهيمنة في الحداثة، غير أنه لا ينفي وجود ازدواجية قطبية راسخة شقَّاها ثقافة النجاح والمال والسلطة من جانب، و من جانب آخر ثقافة الإحساس والروح والشعر التي كان أكثر من أشاعها المراهقون والشعراء المراهقون

العظام، أمثال شيلي ونوفاليس ورامبو وغذتها الثقافة النسوية. ومع أن الحداثة تنكر هذا الجانب فإنها تمده بأسباب الوجود؛ فهي تنتج نقيضها وتكبته في آن واحد.

وأما في القرن العشرين فإن ما كان الناس يسمونه «حداثة منطلقة» قد صار يتمثل في تطوير عجيب للعلم والتقنية والاقتصاد والرأسمالية، وهي المحركات الأربعة المتضافرة على تحريك المركبة الفضائية الأرض، مطلقة قدرة غير مسبوقة على الابتكار، وقدرة في الوقت نفسه على التلاعب والتدمير.

تتجلى الحداثة في ثلاث أساطير كبرى: أسطورة التحكم في الكون التي قال بها كل من ديكارت وبوفون وماركس... وأسطورة التقدم والضرورة التاريخية التي باتت تفرض نفسها مع كوندورسي، وثالثة هذه الأساطير هي أسطورة السعادة. وقد قال سان جوست: «إن السعادة فكرة جديدة على أوروبا». ثم صارت الثقافة التي نشرتها وسائل الإعلام في الفترة الممتدة من القرن التاسع عشر حتى ستينيات القرن العشرين تشيع أسطورة تقول إن السعادة قد باتت في متناول الأفراد في حضارتنا المعاصرة.

وأما في القرن العشرين فإن ما أسموه «حداثة منطلقة» يتمثل في تطور هائل للعلم والتقنية والصناعة والرأسمالية، وهي تشكل مجتمعة المحركات الأربعة للمركبة الفضائية الأرض، وهو تطور أطلق طاقة خارقة على الخلق والابتكار وطاقة جبارة على السيطرة والتدمير.

لقد بدأت أزمة الحداثة في الظهور منذ أن صار الاستشكال الناشئ عن الحداثة والمنقلب على الله وعلى الطبيعة وعلى الخارج ينقلب على الحداثة نفسها. فقد بات العلم اليوم يُطرح بشقين أساسيين. فهو ينتج معارف جديدة تثوِّر معرفتنا بالعالم وتمدنا بالمقدرات الهائلة لتنمية حيواتنا وتطويرها، لكنه في الوقت نفسه يطور قدرات هائلة للموت، من قبيل الموت النووي، بحكم الانتشار الذي تعرفه أسلحة الدمار الشامل والتراجع الإنساني في حال تواصل تدهور المحيط الحيوي الناجم عن تنميتنا.

وأما من جهة أخرى فإن العلم الكلاسي الذي كان إلى مطلع القرن العشرين يقوم على مبدأين؛ ألا وهما مبدأ الاختزال- فلمعرفة مجموع ينبغي اختزاله إلى أجزائه - ومبدإ الفصل - بمعنى فصل المعارف عن بعضها البعض -، هذا العلم افتضحت اليوم الحدود التي ينحدُّ بها، بحكم أن تلك المبادئ لم تعد تسمح باستيعاء التعقد. ولقد أثمرت العلوم مكاسب لم تكن في الحسبان في مضمار المعرفة، لولا أنها مكاسب كان لها مقابل من الجهل؛ نراه في العجز عن وضع الأشياء في سياق وعن الربط بين المنفصلات وفي تعذر الإحاطة بالظواهر الشمولية الكوكبية.

وظهر التساؤل نفسه على الصعيد التقني. فالتقنية تؤدي إلى الأسوإ، كما تؤدي إلى الأفضل. فهي تُقدرنا على التحكم في الطاقات الفيزيقية، كما تقدرنا على التحكم في إلطاقات البشرية. فليس العمال هم وحدهم الذين سُخروا لمهام تكرارية ومقننة، بل إن مجموع المجتمع قد أُخضع لمنطق الآلة الاصطناعية، القائمة

على العقلنة وعلى التوقيت المفرط للزمن، بما أدى إلى رد فعل يتجلى في الميل إلى التهالك على الملاهي والاستغراق في العطل.

فهذا أدى إلى ظهور نقد للعقل كانت قد شرعت مدرسة فرانكفورت في وضع أسسه تحت تسمية «العقل الأدوي»، وهو نقد ينشد تحقيق فعالية الأدوات، مع بقاء غاياته مشوشة أو سيئة. وقد أدى هذا النقد في نهاية المطاف إلى ظهور معسكرات الاعتقال. كما تبين من جهة أخرى أن للمنطق نفسه حدوداً ينحد بها، وذلك شيء تدلنا عليه مبرهنة غودل.

ونحن ندين إلى نيتشه بإطلاقه تلك العبارة «أزمة الأُسس» أي أنه لن يتأدى في بحثه إلى الأساس الأول. فينبغي أن نفكر من غير أساس. وستجد هذه الفكرة صدى لها وتأثيراً، خمسين سنة بعدُ، في الافتحاصات التي تناول بها بوبر ولاكاتوس وفاييرابند العقلَ العلمي. فقد خلص بوبر من نقده للاستنباط إلى القول إن أوتاد العلم موضوعة فوق الوحل وإنه لاوجود لأي أساس.

إن هذا التفاوت الكبير بين الفلسفة والعلم قد بلغ في الوقت الحالي أقصى المبالغ، بحكم أن بعض المشكلات الفلسفية تعود إلى الظهور في العلم، وبحكم أن الفلسفة المنطوية على نفسها تسير إلى الجفاف والضمور، ولا تعود تضطلع بوظيفة التأمل في العالم البشري. إن التفكير القائم على العقلنة وعلى المكمِّم والحساب، والدي يَختزل في الاقتصاد لهو تفكير عاجز عن فهم ما يعجز عن فهمه الحساب؛ أعني الحياة والأحاسيس والروح وتلك مشكلاتنا البشرية.

لقد طالت الأزمة أساطيرنا الكبرى : التقدم والسعادة والتحكم في العالم. فكيف أمكن لفكرة التقدم أن تصمد للحربين العالميتين الرهيبتين وتقاوم الفاشية والستالينية وتعود إلى الظهور من جديد بعد الحرب العالمية الثانية في ذلك التصور القائل بمستقبل مشرق في البلدان الشرقية وحضارة صناعية متقدمة في البلدان الغربية؟ وقد آل الأمر بهذه الأسطورة إلى التفكك منذ أن كان الانفجار الذي حاق بالاتحاد السوفييتي وما وقع من تلك الظواهر الارتكاسية. وبات المستقبل نفسه اليومَ في أزمة؛ وانتفتْ كل إمكانية للتكهن وإن هي إلا فرضيات، بله سيناريوهات.

لقد أصبح المستقبل شيئاً مجهولاً. قال الفيلسوف التشيكي باتوك : «لقد استشكلت الصيرورة وستظل في استشكال على الدوام».

وأما في ما يتعلق بالتحكم في العالم فلقد فقدنا لانهائياً زائفاً. فنحن ندرك في الواقع أننا كلما زاد تحكمنا في القوى المادية في العالم إلا زدنا انحطاطاً بالمجال الحيوي. وقد تبين من الاكتشاف الجديد أن النظام الشمسي لا يزيد عن ضاحية صغيرة من العالم فهذا أدى إلى انهيار كل قول بسلطان بني البشر على العالم. أفلا يحسن بنا أن نرتب أرضنا وكأنها لنا بيت مشترك؟

وباتت أسطورة السعادة هي الأخرى في أزمة. فقد بدأ الناس اليوم يدركون أنه إذا كانت المنتجات الإيجابية للسعادة سيظل لها وجود فستظهر كذلك منتجات صغرى سلبية : التعب والإفراط في استعمال المحركات العقاقيرية النفسية والمخدرات... ثم إن

النزعة الفردانية إذ تقوض التكافلات التقليدية تنتج كذلك العزلة وتنتج التعاسة. فإذا المدينة المتألقة تصير مدينة مجسِّية بحياتها المعقلنة وأشكال التلوث المهيمنة عليها وكروبها. وقد خيل إلينا أن في مقدورنا أن نبني حضارة تنعم بالأمن، لكننا صرنا ندرك في الوقت الحاضر أن هذه الحضارة تخلق مخاطر جديدة بدلاً من أن تزيل الخطر الواحد.

ويتعين علينا كذلك أن نتحدث عن أزمة الروح وأزمة الفكر فهي أزمة تطلق نداء على الشرق الداخلي، وستمضي للبحث في الشرق الخارجي عن علاجات لها. فلماذا هذه الدعوة إلى اليوغية وإلى البوذية، ذلك البحث في العهد الجديد، وكأن الحضارة المادية قد خلقت فراغاً روحياً وطلاقاً بين الجسد والفكر؛ طلاق ينجم عنه وسواس الهزال الذي يستحوذ على البدينين من السكان؟

وفي الأخير فإن الأمم المتحدة التي باتت اليوم عاجزة عن أن تحل لوحدها المشكلات بسبب من التواقُف الذي بات يقوم عليه كوكبنا الأرضي، قد صارت هي الأخرى إلى أزمة.

لقد دخلنا عهد الاستشكال المعمم ونهاية الأساطير الكبرى حتى وإن كان هذا العهد سيشهد هو الآخر ظهور أساطير أخرى. إن معظم الحلول قد صارت مشكلات، من غير أن تكف عن أن تكون مع ذلك حلولاً. وكانت هذه الأزمة هي السبب في نشوء مفاهيم «الحداثة المتأخرة» أو «ما بعد الحداثة»، وهذا مفهوم له أهميته بحكم أنه يأتي لينقض عبادة الجديد في الهندسة كما في الفن. فالشيء الأجمل ليس هو بالضرورة الشيء الأجَد بتعبير

هارولد روزنبيرغ في كتابه «**إغراء الجديد**»[1]. إن عبادة الجديد لايزال لها وجود في الأسواق الممتازة، حيث «بونكس يصبن أشد بياضاً»، لكنها في سبيلها إلى الزوال.

فهل في الإمكان أن نأتي باسم لما لم يظهر بعد، ولما يتبدى في صورة متقلبة ومشوشة؟ إن تضادات الحداثة قد بلغت أقصى المبالغ. فقد بات الأمر وكأن ثمة احتضاراً، بالمعنى الأصلي لهذه الكلمة، أعني صراعاً بين قوى الحياة وقوى الموت. ترانا سنصل إلى طور متحول من الحداثة؟ و«التحول» يعني استمراراً في الهوية وتحولاً في الجوهر معاً. تلك هي الدودة وقد تحولت إلى فراشة بعد أن مرت بطور الغذفة. وقد بدأنا نشهد سيرورات تحولية. وهذا لايعني أن التحول شيء متوقع أو مبرمج. وأنا لا أستبعد اللايقين واحتمالات حدوث تراجعات، بله لا أستبعد احتمالات حدوث تخريب. لكني مع هذه التحولات أزعم أن في الإمكان أن نرى هذه السيرورات على الصعيد الأرضي في مجيء العولمة، التي ستكون عهداً أخيراً في تكون النظام العصبي على صعيد كوكب الأرض برمته، بفضل الاقتصاد المعولم وبفضل التقانيات التواصلية الجديدة. أفلا يكون هذا الأمر يمثل البنية التحتية لعالم جديد قيد الظهور؟

غير أننا لا يمكننا أن نتكهن موقنين بتحول في تاريخ البشرية. فلنفترض أن ملاحظاً من كوكب آخر قدم منذ خمسة مليارات من

1- Harold Rosenberg, *The Tradition of the New*. Trad fr. *La Tentation du nouveau*, Minuit, 1962.

السنوات إلى كوكبنا وهو في حالة سديم، فالمؤكد أنه سيعود أعقابه إلى ألفا دو سنطور*، وهو يحدث نفسه أنه سوف لا يحدث شيء مثير للاهتمام على الأرض، وذلك في الوقت نفسه الذي كانت جزيئات كبرى بصدد تكوين كائنات حية. وبعد ذلك تكونت انطلاقاً من مجموعات منفصلة عن بعضها ومتنقلة في الشرق الأوسط وفي حوض الهندوس وفي الصين وفي المكسيك مجتمعات تاريخية وحضارات. إن التحول شيء لا يُرى قبل أن يتحقق.

إن وعياً أرضياً متجاوزاً الأوعاء العالمية التي عرفتها العقود الأخيرة قد بدأ يتهيأ للظهور بفكرة الأرض الوطن التي نحن أبناؤها. وبذا ننتقل من كلية مجردة إلى كلية ملموسة، إذ الأمر يتعلق بالأرض. وسيكون فيه كذلك تمهيد لحضارة جديدة في سياق البحث عن جودة الحياة والهاجس البيئي، وهو بحث له صلة قربى بما سُمي في ألمانيا في وقت من الأوقات *Lebensreform**.

لقد شهد العلم ثورات في الفيزياء وفي الفيزياء الدقيقة، كما عرف تلك الثورات في مضمار علوم الحياة ليواجه بها التعقد. ويمكننا كذلك أن نرهص بتحول في الكيمياء، وذلك بالانتقال من الآلة الجبرية إلى آلات تتمتع ببعض خصائص الحياة.

---

* - (هـ. م) Alpha du Centaure يعتبر من بعد الشعري اليمانية وسهيل ألمع النجوم في السماء، ويسمى كذلك ألفا سنتوري، وهو أقرب النجوم إلينا، إذ يبعد عنا مسافة 4.22 سنة ضوئية فقط. أي ما يعادل 40 ألف مليار كيلو متر.

* - (هـ. م) ظهرت حركة «*Lebensreform*» في ألمانيا وسويسرا أواخر القرن التاسع عشر، وكان لها تأثير واسع حتى منتصف القرن العشرين. وهي حركة تتجه أساساً إلى نقد التعمير والتصنيع وكان شعارها «العودة إلى الطبيعة».

هذه هي المكشلة الحالية. فأن نعرف الوسم الذي ينبغي أن نلصقه بحداثتنا أمر غير ذي أهمية، وأما المهم فهو أن نتتبع السيرورات. فينبغي ألا يلهينا الجري وراء الدقة المزعومة في التواريخ والأوسام، بل ينبغي أن نستمر في فهم الحداثة بما هي سيرورة زوبعية أو تكرارية، يشترك كل عنصر من عناصرها في صنع العناصر الأخرى. وكما يفيدنا عنوان المجلة *LaSer*[2] فالحداثة تنتج مسوخاً كما تنتج عجائب، والسؤال كله يكمن في معرفة هل المسوخ هي التي ستقضي على العجائب، أم العجائب هي التي ستقضي على المسوخ. ويمكننا أن نمثل لهذا الأمر بصورة متعلم السحر؛ فنقول إننا أطلقنا قوى لم يعد بمقدورنا أن نتحكم فيها!

وقد باتت مسلسلات التراجع والتخريب اليوم أكبر وأعظم وباتت المحتمل كارثياً. لكن، وكما حدث كثيراً خلال التاريخ فيمكن لغير المحتمل أن يقع. فقد كان المحتمل في سنوات 1940 - 1941 أن تتحقق هيمنة طويلة الأمد للإمبراطورية الهتلرية على أوروبا. وإن هي إلا بضعة أشهر حتى أصبح غير المحتمل محتملاً. وأعتقد أنه ينبغي أن نراهن دوماً على غير المحتمل. فإن هذا الأمر ينطوي على ثقة وعلى أمل في بعض القدرات التوالدية لدى الفرد ولدى جماع بني البشر. فنحن نعرف على الصعيد الحياوي أن بعض الخلايا الجذعية الراقدة إذا تنبهت كان من شأنها أن تعيد تجديد أعضائنا وكُهيرباتنا. وسيفيدنا المستقبل في مدى إمكانية

2- *LaSer no3*, *Monstres et merveilles de la modernité*, Paris, Descartes & Cie, 2003.

استعمالها. إن الكائن البشري ينطوي على استعدادات للتحول الذاتي تتنبه في حالات الأزمة، عندما تأخذ الأشياء المتصلبة في التفكك في مواجهة المخاطر. ولذلك فأنا أؤمن بإمكانية توليد كلية جديدة عن طريق إدماج مختلف حضارات الشمال وحضارات الجنوب وحضارات الشرق وحضارات الغرب في بعضها. ذلك هو المبتدأ *(arkhê)*، وما يوجد في الأصل، وما يكون في البداية. فقد تحدث ماركس عن «الإنسان الجنسي *générique*»، بمعنى القدرة الخلاقة الكامنة في الكائن البشري. إن التطور، حتى في شكله الملطَّف الذي نرى صورته في التطور المستدام، يتمثل في اتباع السبيل المؤدية إلى الكارثة. فينبغي تغيير السبيل من أجل الشروع في بداية جديدة.

ما بعد الأنوار



لقد جاء عصر الأنوار، بعد ما كان من الانفجار الذي تعرضت له النهضة، ليكون لحظة مركزية في تاريخ الفكر الأوروبي. والحوارية الكبيرة التي استُهلت مع عصر النهضة بمعنى العلاقة التعارضية والتكاملية معاً، التي تقوم بين الإيمان والشك وبين العقل والدين، تلك الحوارية الكبرى تجد محورها لدى باسكال، ذلك الرجل الذي جمع بين العقل والدين وجمع بين الإيمان والشك. وقد تميزت تلك الحوارية الكبيرة خلال عصر الأنوار برجحان (وربما تسلط) للعقل.

والمؤكد أن عصر النهضة، الذي تحقق فيه انبعاث لفلسفة لم تعد خديمة للدين، قد أعاد إحياء الموضوعة القائلة باستقلالية العقل والتي جاءتنا من اليونان، ومكنت لازدهار العلوم على أسس عقلية تجريبية مع غاليلي وديكارت وبيكون. وقد مكن هذا الازدهار المتحقق للعلوم من تحقق المعرفة، لكن بفصل موضوعات المعرفة بعضها عن بعض وفصلها عن الذات العارفة، أي بحل تعقدها على وجه الإجمال. وإن هذا العقل الذي ظهر أصلاً في العلوم ستصير له السيادة خلال القرن الثامن عشر في فرنسا. وفي تلك اللحظة سيزداد حضور العقل، بما هو عقل بان للنظريات وبما هو

عقل نقدي. فالعقل النقدي سيتصدى بالنقد إلى الأساطير والأديان في صورة ربما جاز لي أن أنعتها بالقاصرة لأنها قصرت عن رؤية المحتوى الإنساني في الأساطير وفي الدين. ويمكن القول إن هذا العقل قد أنشأ نظرياته – خاصة منها النظريات العلمية – وبنى فكرةً أن العالم قابل للإدراك كلياً عن طريق العقل وأن الإنسانية يقودها العقل. وإذا هذا العقل المتحكم في كل شيء قد صار كأنما توجهه العناية الإلهية أو كأنما تحكمه أسطورة أشبه بالدينية.

فيكون العقل من هذا المنظور منتجاً للمعرفة الصحيحة أعني الحقيقة. وذلك كان شأنه في عصر قد ازدهرت فيه العلوم الفيزيائية والكيميائية والحياوية. وحينذاك شاعت تلك الفكرة القائلة إن العالم قابل للإدراك بصورة كلية (هذا الإدراك الشامل هو الذي يصدر عنه عفريت لابلاص*. فلابلاص يتصور عفريتاً يتمتع بالمقدرات العقلية الفائقة سيكون قادراً على أن يعرف لا جميع الأحداث التي مرت في الماضي فحسب، بل وسائر الأحداث التي ستقع في المستقبل). إن العقل يقود الإنسانية نحو التقدم وبذا يصبح التقدم هو القانون المحتوم للتاريخ. وقد وجدنا القول بهذه الحتمية عند غوردوسي. فالمستقبل سيصبح مشرقاً والإنسانية نفسها تزدهر وتتفتح من جانبين اثنين. فأما الجانب الأول فهو – وقد تم استبدال الله – اعتبار الإنسان هو ذات العالم فينبغي له بموجب ذلك أيضاً أن يتحكم فيه في النهاية (فمهمة التحكم في الطبيعية هي التي

* (هـ. م) نسبة إلى بيير سيمون دولابلاص (1749–1827)، رياضي وفلكي وفيزيائي فرنسي. ويقال في تلك العبارة كذلك «جنّي لابلاص» (génie de Laplace).

يسندها ديكارت وبوفون وماركس إلى العلم). وأما الجانب الثاني من الإنسانية فهو يقوم على تساوي سائر الأناسي في الكرامة فهم جيمعاً مستحقون على اختلافهم لقدر واحد من الاحترام وهذه نظرية تحمل في ذاتها لا الحرية وحدها، بل والتحرير أيضاً. وقد تميزت لحظة الثورة الناشئة في سنة 1789 بتلك العبارة «حقوق الإنسان» المليئة بالوعود، بحيث قيل في وصفها بتعبير هيغل إنها «طلوع رائع للشمس».

وسبق لروسو نفسه أن قال بموضوعة الوجدان (أو الإحساس) وأنها تتعارض والعقل، وهو القائل إن العقل وحده ذو طابع مجرد وأقرب إلى أن يكون لاإنسانياً. وقد بين روسو على طريقته الطابع المجرد للقطيعة بين ما هو بشري وما هو طبيعي بإيلائه الطبيعة مكانة أقرب إلى تكون الأم أو الرحم. وكان ڤولتير يسخر من موليير قائلاً عنه: «إنه يريد أن يجعلنا نمشي على أربع قوائم». وكذلك نجد روسو من القائلين بفكرة أن الحضارة تأتي بتدهور للإنسانية. وهو يصدر عن الأسطورة القائلة بالإنسان الطبيعي الذي يفترض لا وجود إنسانية شاعرية في الأصل في ما يشبه جنة عدن، بل يقول بوجود مقدرات إنسانية منطمرة في الحضارات ومقموعة في مجتمعاتنا. فهذا قد بعثه على التساؤل عن التقدم. فما عاد التقدم يُتصور بكونه نوعاً من الفوز الدائم بالأفضل. وأصبح السؤال: ماذا سنخسر عندما نكسب تقدماً تقنياً وتقدماً مادياً وتقدماً عمرانياً؟ وهذه بطبيعة الحال مشكلة قد أصبحت لها راهنية وإلحاح في سياق الأزمة التي باتت تتخبط فيها حضارتنا. وقامت الثورة

الفرنسية على انتصار الأنوار وعلى أزمتها معاً. فأما انتصارها فتدلنا عليه الرسالة التحريرية لسنة 1789. وأما أزمتها فيدلنا عليها ذلك الرعب، وذلك الخضوع الماحق الذي صار نحو العقل (أفكر في أليخو كاربونتيي وفي روايته الرائعة «**عصر الأنوار**»[1]، التي يقول فيها إن الأنوار جاءت إلى الكارايبي بالمقصلة).

وأما الرومنسية فهي تعتبر بمعنى من المعاني انبثاقاً لما كبَتَته الأنوار. فقد عادت إلى القول بروح الجماعة والعلاقة الروحانية مع الطبيعة وفضيلة ما هو ديني، وهي أمور جاءت لها الرومنسية بالفعل بما يشبه رد الاعتبار إلى العصور الوسطى. واعتمدت الرومنسية كذلك وبمعنى من المعاني على إحساس عارم بالطبيعة يتغنى بجمال الليل (وقد كان إدوارد يونغ كتب مؤلفه «**الليالي**»* في منتصف القرن الثامن عشر). ثم إن الرومنسية قد احتجت بالرغبة في مقابل العقل. بيد أن الرومنسية المتأخرة، أو بالأحرى رومنسية الرومنسيين الذين أصبحوا شيوخاً من أمثال فيكتور هوغو أو لامارتين، أو رومنسية الشبان من النصف الثاني من القرن التاسع عشر أمثال رامبو، تأخذ برسالة الأنوار؛ فهي تنشد تقدم بني البشر المتمثل في تحرير المضطهدين.

وقد جاءت الاشتراكية، وجاء الفكر الماركسي خاصة، بإعادة إحياء لفكرة التقدم. التقدم نفسه الذي يتحقق لا من خلال نوع من التدرج الخطي، بل من خلال الصراع والنضال الذي تخوضه

---

1 - Alejo Carpentier, *Le Siècle des Lumières* (Éditions Gallimard, collection «Folio», traduit de l'espagnol (Cuba) par René L-F Durand, 2002).

*- *Les nuits*

الطبقات. وسيمكن هذا الصراع للطبقة المستغَلة ذات الأغلبية والبروليتاريا، لا تحرير نفسها فحسبُ، بل سيمكن لها كذلك أن تخلق لها المجتمع الخالي من الطبقات، كما أن تطوير قوى الإنتاج سيسمح بازدهار التقنية وسيحقق الوفرة. وتعتبر الثورة الاشتراكية العالمية بمعنى من المعاني الوسيلةَ والمرحلة التي سيتحقق بها هذا التقدم. وكما أن الأسطورة والدين قد أفسدا فكرة العقل في أواخر القرن الثامن عشر يجوز لنا القول كذلك إن ما هو ديني قد نفذ إلى صميم الوعد الماركسي، ما دام العالم الجديد ينبني بمعنى من المعاني على نزوع مسيحي حقيقي؛ بالنظر إلى أن المسيحية هي البروليتاريا الصناعية والقيامة والثورة والوعد بانتصار المجتمع اللاطبقي.

ويمكننا القول كذلك إنه من بعد الثورة الفرنسية عادت اللائكية الفرنسية (من غير الخوض في الموضوعة الثورية) لأواخر القرن القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين إلى إحياء ميراث الأنوار. ومما يجدر بالذكر أن المعلمين قد كانوا هم من حمل هذه الرسالة في مواجهة الخوارنة في القرى. ويتمثل ذلك الخطاب اللائكي في القول : إن التقدم يأتي من تطور العقل وتطور العلم وتطور التربية. ومن البديهي أن العقل لم يكن له إلا أن يدفع إلى التطور وأن العلم والتربية لم يكن لهما إلا أن يكونا مصدرين للخيرات... بيد أن هذه البديهيات أو بالأحرى هذه الحلول قد أصبحت كلها في الوقت الحالي مصدراً للمشكلات. فلقد نال من بريقها كثيراً ما نرى من أن كل واحد من هذه الألفاظ التي يفترض بها أن تكون

مصادر للخير وحده قد صارت اليوم تنطوي على تناقضات وخليط من الخير والشر. وكذلك ابتكر العلم السلاح النووي، كما رأينا له صوراً في هيروشيما وفي ناغازاكي. وخلق العلم القدرة على إنتاج الموت الجماعي للبشرية. وأما في المجال الحياوي فالعلم قادر على خلق تلاعبات جينية يمكن تسخيرها لأجل تحقيق الأحسن ولأجل تحقيق الأسوإ على حد سواء. كما يمكن لاستعمال التقنية نفسها أن يخلق الأفضل كما يخلق الأسوأ. وكذلك تؤدي القوى العلمية / التقنية / الاقتصادية التي لم يعد للبشرية فيها من تحكم إلى صنوف من تدهور المجال الحيوي ستكون لها أسوأ العواقب وأفظعها على بقاء البشرية.

فلنقل إن المحرك الرباعي الذي مكوناته العلم والتقنية والاقتصاد والربح، والذي كان من المُفترض أن يخلق التقدم قد صار اليوم يدفع المركبة الفضائية من غير أن يكون فيها ربان وينطوي على تهديد مزدوج بالموت: موت المجال الحيوي والموت النووي. بما يدل على وقوع قلب رهيب في الأمور. وإذا كان من الثابت أن العلم ينير الظلمات، فإنه في الوقت نفسه يعمي الأبصار، بالنظر إلى أنه لم ينجح بعد في إنجاز ثورته المتمثلة في تجاوز الاختزالية وتجزيء الواقع اللذين تفرضهما التخصصات المنغلقة على بعضها. فالعلم غير قادر على أن يعيد تكوين الرؤى الشمولية. لكن يمكننا أن نؤمل بطبيعة الحال في علم جديد تتحقق له أسباب التطور والإحياء. ويمكننا كذلك أن نذهب إلى الاعتقاد بأن التقنية التي أنتجت الآلات الخاضعة لمنطق آلي خالص - عدا أنه

منطق قد أعمله التيكنوقراط والإيقونوقراط على سائر المجتمعات- ستخلق آلات أفضل وأكثر إدراكاً للتعقيدات، وأن الاقتصاد لن يظل محكوماً بقانون المنافسة الذي تقوم عليه الليبرالية الجديدة وأن يتيح إمكانيات أخرى؛ من قبيل التجارة العادلة والاقتصاد التضامني، أو ما يمكن أن نسميه باختصار الاقتصاد المواطن.

وأياً ما يكن فإن التقدم بما هو يقين شيء قد ولى وانتهى. وحتى ليسوغ لنا القول إننا قد صرنا بإزاء لايقين كاسح. وإن بالإمكان أن يحصل تقدم، لكن التقدم بحاجة على أن يظل يتجدد على الدوام. فلا يمكن لأي تقدم أن يظل مستمراً على الدوام. ومن قبيل ما نقول أن التعذيب قد اختفى من أوروبا في القرن التاسع عشر، ثم عاد إلى الظهور في سائر بلدان أوروبا في القرن العشرين. ونخص بالذكر ما نرى اليوم من تحالف بين الهمجيتين : الهمجية القديمة التي عرفناها في الحروب العرقية وفي الحروب الدينية وفي الحروب الأهلية، فهذه الهمجية تعود بقوة مع كل ما تحفل به من أحقاد واحتقار وشتى التخريب وشتى صنوف القتل... والهمجية التقنوية؛ تلك الهمجية التجريدية القائمة على الحساب والتي تجهل بإنسانية الإنسان، أي تجهل بحياته وتجهل بمشاعره وتجهل بميوله وتجهل بصنوف معاناته.

هذه الاعتبارات مجتمعة تتأدى بنا إلى القول بوجوب تجاوز الأنوار. فينبغي أن نبحث عما بعد الأنوار. وأنا إذ أقول «نتجاوز» فإنما أريد التجاوز بالمعنى الذي يريده هيغل بفعل «*aufheben*» بمعنى إدماج ما أصبح متجاوزاً وإدماج ما يوجد في الأنوار من عناصر

صحيحة، لكن أن يكون ذلك الإدماج في شيء آخر مختلف. فما الذي نريد بما بعد الأنوار؟ إننا نريد به أولاً أنه ينبغي أن نعيد افتحاص العقل؛ فينبغي أن نتجاوز العقلانية المجردة والأولوية تُجعل للحساب والأولوية تُجعل للمنطق المجرد. وينبغي أن نتخلص من العقل التجزيئي. وينبغي أن نكون مدركين للأمراض التي تصيب العقل. وينبغي أن نتجاوز العقل الأدَوي الذي تحدث عنه أدورنو ذلك العقل الذي يسخَّر لأسوإ مشاريع القتل. بل وينبغي أن نمضي إلى حد تجاوز الفكرة القائلة بالعقل الخالص، إذ ليس من وجود لعقل خالص، وليس من وجود لعقلانية بدون شعور وبدون وجدان. وينبغي أن نمد جسور الحوار بين العقلانية والوجدان، ويكون لدينا عقل ممتزج بالشعور، لتكون لدينا عقلانية منفتحة. وينبغي أن نقوي من هذا التيار الأقلّي في [خضم] هذا العالم الغربي أو الأوروبي تيار العقلانية الناقدة؛ للذات التي كانت بداية من مونطين وحتى ليفي شتراوس تقر بحدودها وتحمل نقداً ذاتياً للغرب. وبتعبير آخر إننا نحتاج إلى عقلانية مركبة تواجه التناقضات واللايقين، من غير أن تغرقهما أو تفتتهما. أي أن حاجتنا في ثورة معرفية وحاجتنا في ثورة في المعرفة. وينبغي أن نسعى لنطرد عنا الذكاء الأعمى الذي لا يرى غير القطع المنفصلة، والذي يعجز عن لحم الأجزاء إلى الكل ووصل العنصر [الواحد] بسياقه، ويعجز عن تصور العصر الكوكبي ويعجز عن إدراك المشكلة البيئية. ويمكننا القول إن المأساة البيئية التي بدأت علائمها في الظهور هي أول كارثة كوكبية يسببها النقص العميق الذي يشكو منه أسلوبنا في المعرفة والجهل

الذي ينطوي عليه هذا النمط من المعارف. أي ينبغي أن نسعى إلى تقويض ذلك التصورالساطع للعقلانية (أريد ذلك التصور الذي يسلط [على الأشياء] ضوءاً باهراً فيبدد الظلمة بأفكار منيرة وجلية وباعتماد منطق الحتمية)، فهو بطبيعته منطق يجهل بالفوضى ويجهل بالصدفة. وينبغي أن يتسع تصورنا للواقع المركب، وهو نتيجة لخليط متغير على الدوام للنظام والفوضى والتنظيم. وينبغي أن نعرف أنه يوجد مبدأ تنظيمي، كما يوجد مبدأ لاتنظيمي في العالم بموجب المبدإ الثاني في الدينامية الحرارية. وينبغي أن ندرك أن الكون معقد وسيظل يحفل على الدوام بالنسبة لفكرنا باللايقين والتناقض. وينبغي أن ندرك أنه «معتم حتى النبع الذي يولد منه نورنا» بتعبير دولاكروا. وينبغي أن نعي أن غير المتوقع وغير المحتمل هما اللذان كثيراً ما يحدثان. فينبغي أن نتحلل من التقدم الحتمي والتقدم الضروري في كل شيء، أي في تصورنا للحياة وفي تصورنا للتاريخ وفي تصورنا للعالم. ويمكن أن نضرب لحدوث غير المتوقع مثالين؛ أولهما وقع خلال حروب الميدية وقت أن أفلحت أثينا الصغيرة في أن تدفع لمرتين الإمبراطورية الفارسية العظيمة، والثاني وقع خلال الحرب العالمية الثانية أواخر سنة 1941 على مشارف موسكو، وقت أن بكر الشتاء فأوقف زحف الجيوش النازية. وينبغي الإقلاع عن الفكرة المجردة عن [المكون] الإنساني وأنه يوجد في صلب الإنسانوية. فهي فكرة مجردة لأننا بها نختزل الإنساني في الإنسان الحكيم *Homo sapiens* وفي الإنسان الصانع *homofaber* وفي الإنسان الاقتصادي *homo economicus*. فالكائن

البشري فيه الحكيم وفيه الشيطان وفيه الصانع *faber* وفيه الخرافي *mythologicus* وفيه الاقتصادي *economicus* وفيه اللعبي *ludens* وفيه النثري وفيه الشعري وفيه الطبيعي وما فوق الطبيعي. فينبغي أن نعرف أن العمومية قد أصبحت شيئاً ملموساً في سياق تحقق العصر الكوكبي، الذي صرنا فيه نكتشف أن الأناسي لا يشتركون في الأصل أو يشتركون في الطبيعة من خلال التنوع، بل إنهم يشتركون كذلك في المصير. وبهذا المعنى يمكن للأنسية أن تصبح شيئاً ملموساً.

ثم إن التقدم قد أصبح يتوقف في الوقت الراهن على الوعي الإنساني. فالتقدم المكتسب ينبغي أن يظل في تجدد مستمر ومتواصل. وإن إمكانية التقدم تكمن في ما كان ماركس أسماه «الإنسان الجنسي»، وفي المقدرات التي تكبحها مجتمعاتنا ويكبحها التخصص ويكبحها تقسيم العمل ويكبحها التصلب والشيخوخة... هذه الفكرة التي قال بها روسو لها عند ماركس أهمية قصوى. وإن في مجتمعاتنا وحدهم الشعراء والفنانون والمبتكرون – بما هم كائنات منحرفة – القادرون على الخلق وعلى الابتكار. فهذا يجعلنا نتوسم إمكانية للذهاب أبعد من الأنوار، بالانخراط فيها. فينبغي أن نجمع بين أربع سبل لا تزال إلى اليوم منفصلة عن بعضها. فأما السبيل الأولى فهي إصلاح التنظيم الاجتماعي، ولا يمكن أن تكون هي السبيل الوحيدة للتقدم، لكن لا ينبغي العدول عنها. وأما السبيل الثانية فهي سبيل الإصلاح عن طريق التربية التي ينبغي أن تتم على المستوى العميق جداً، لكي

يتسنى للتربية أن تساعد على تطوير الأذهان. وأما السبيل الثالثة فهي سبيل إصلاح الحياة. وأما السبيل الرابعة فهي سبيل الإصلاح الأخلاقي بمعناه الحقيقي. وينبغي لنا أن نعي أنه متى تحقق التقدم الحقيقي فهو يكون مصحوباً بإمكانية حدوث التحول.

وإذا كنا نقول بمجتمع عالمي فسيكون نتيجة لتحول، لأنه سيكون مجتمعاً من نوع جديد، لا إعادة إنتاج هائلة لدولنا القطرية الحالية. ولاشك أن هذا الأمر بعيد عن الاحتمال لكنني صرفت حياتي كلها أؤمل في ما هو بعيد عن الاحتمال وكان مؤملي يجد له التحقق أحياناً. إن الأمل الذي نحمل هو المشعل الذي نرفعه في الليل؛ فليس هنالك ضوء باهر، وإن هي إلا مشاعل تصارع ظلمة الليل.



تحدي العولمة



لقد بتنا نشهد عمى مكيناً عن طبيعة ما ينبغي أن يكون معرفة مكينة. فالقاعدة السائدة تقوم على اعتبار الدقة تزداد مع التخصص ومع التجريد. والحال أن حداً أدنى من المعرفة بما تكون المعرفة يعلمنا أن الأهم هو وضع الأشياء في سياق. فهذا كلود باستيين يسجل أن «التحول المعرفي لايتجه نحو وضع معارف تزداد تجريداً، بل ينحو على العكس إلى وضعها في سياق»[1] - وهو الأمر الذي يحدد شروط ترابطها وحدود صحتها.

إن المعرفة المتخصصة تعتبر في حد ذاتها شكلاً خاصاً من التجريد. إنها التخصص المجرد؛ أي أن تنتزع شيئاً من حقل من الحقول وتضرب صفحاً عن روابطه وتعالقاته مع وسطه وتدخله في قطاع تصوري مجرد هو قطاع العلم المجزإ، الذي تحطم حدوده بصورة اعتباطية النسقيةَ (العلاقة التي تقوم بين الجزء والكل)، وتحطم تعدديةَ الأبعاد في الظواهر؛ فهو يقود إلى التجريد الرياضي الذي يقيم هو نفسه فاصلاً مع الملموس إذ

1- Claude Bastien, «Le Décalage entre logique et connaissance», in *Courrier du CNRS*, no 79, Sciences cognitives, oct. 1992.

يجعل الأفضلية لكل ما هو قابل للحساب وقابل للصورنة من جهة، ويجهل من جهة أخرى بالسياق اللازم لفهم أشيائه.

ومن ثم فالاقتصاد، الذي يعتبر العلمَ الاجتماعي الأكثر تقدماً من الناحية الرياضية، هو العلم الأشد تخلفاً من الناحيتين الاجتماعية والإنسانية، لأنه تجرَّد من الشروط الاجتماعية والتاريخية والسياسية والنفسية والبيئية التي لاسبيل إلى فصلها عن الأنشطة الاقتصادية. ولذلك أصبح خبراؤه يزدادون مع الوقت عجزاً عن تفسير أسباب الاختلالات التي باتت تعتور العملات والبورصات وتفسير عواقبها، ويزدادون عجزاً عن التكهن والتنبؤ بالمجرى الذي سيسير فيه الاقتصاد ولو على المدى القصير. وكما قال غيلبرايث إن «الوظيفة الوحيدة للتوقعات الاقتصادية هي أن تجعل الاقتصاد في صورة تدعو إلى الاحترام».

حقاً إن المعرفة ينبغي أن تتوسل بالتجريد، ولكن إنما تفعل في سعيها إلى بناء نفسها بالاستناد إلى سياق، فينبغي لها لأجل ذلك أن تسخر كل ما يعرف العارف عن العالم. كتب فرونسوا ريكانتي[2]: «إن فهم الملفوظات لا يكون بالاقتصار على استشفارها، بل باتباع سيررورة تأويلية غير معيارية، يتجند لها الذكاء العام وتعتمد أيما اعتماد على المعرفة بالعالم». ومعنى ذلك أن فهم المعطيات الخاصة لن يكون بالفهم الملائم إلا عند من يتعهد وينمي ذكاءه العام ومن يجند معارفه الجامعة في كل حالة من الحالات الخاصة. قال مارسيل

---

2 - *Ibid*, «La Pragmatique linguistique», p. 21.

موس : «ينبغي أن نعيد تكوين كل شيء». ونضيف إلى ما قال : ينبغي تعبئة كل شيء. حقاً إن من غير الممكن معرفة كل شيء عن العالم، ولا الإحاطة بتحولاته متعددة الأشكال، لكن مهما بلغت المعرفة بمشكلات العالم الأساس والمعلومات الأساس بشأنه من تعذر التحقق ومهما بلغت من صعوبة فينبغي الاجتهاد إلى بلوغ تلك المعرفة وإلا وقعنا في الغباوة المعرفية. ولاسيما أن السياق اليوم لكل معرفة سياسية واقتصادية وإناسية وبيئية، إلخ. قد أصبح هو العالم نفسه. فالعهد الكوكبي يقتضي وضع كل شيء في السياق الكوكبي. وإن المعرفة بالعالم بما هو عالم قد أصبحت ضرورة ثقافية وحيوية على حد سواء. وتلك هي المشكلة الكلية لكل مواطن : كيف يتأتى له الوصول إلى المعلومات التي تفيده عن العالم، وكيف تتحقق له الإمكانية لربطها ببعضها وتنظيمها. لكن لكي يتأتى ربطها ببعضها وتنظيمها ويتسنى من ثم التعرُّف عليها ومعرفة مشكلات العالم ينبغي القيام بإصلاح للفكر. وإن هذا الإصلاح الذي يقوم على تطوير المعرفة ووضعها في سياقها ليدعو تلقائياً إلى التركيب بين مكونات المعرفة.

الفكر قطعاً مُقطَّعة

إن الفكر الذي يجزئ ويقطع ويعزل يمكِّن للمتخصصين والخبراء الأداء الجيد كلاً من خانته، ويسمح لهم بإقامة تعاون فعال في قطاعات المعرفة غير المركبة، خاصة تلك القطاعات التي تهم عمل الآلات الاصطناعية، بيد أن المنطق المتحكم في هؤلاء يسقط

الإكراهات والآليات غير الإنسانية للآلة الاصطناعية على المجتمع ويمتد بها إلى العلاقات الإنسانية، كما وأن رؤيتهم الحتمية الآلية الكمية الشكلانية تجهل بكل ما هو ذاتي ووجداني وحر وخلاق وتطمسه وتقطع أوصاله. وعدا ذلك فإن الأذهان المجزأة والمقنَّنة والمبقرطة تعمى عن التفاعلات والمفعولات الراجعة، وتعمى عن السببية الحلَقية، ولا نزال نراها كثيراً ما تنظر إلى الظواهر من حيث سببيتها الخطية، فهي تدرك الوقائع الحية والاجتماعية وفق تصور آلي / حتمي لا يصلح لغير الآلات الاصطناعية. ويمكن القول بوجه أعم وأعمق إن الفكر التقني البيروقراطي يعجز عن إدراك الشمولي والأساسي ويعجز عن إدراك تعقد المشكلات الإنسانية ويعجز عن تصورهما [مجرد تصور].

إن المشكلات متعالقة مع بعضها في الزمان وفي المكان، بينما الأبحاث التخصصية تعزل المشكلات بعضها عن بعض. حقاً إنه قد حدث وعي بالمحيط وبالتطور أدى إلى تشجيع الأبحاث متعددة التخصصات، لكن على الرغم من الاعتمادات المهمة التي رصدت لهذا الأمر فإن نتائجه كانت هزيلة، لأن الشهادات والمهن وأنظمة التقييم قد تمت في إطار من التخصصات. ونلاحظ بوجه خاص مقاومة مستميتة من المؤسسة النخبوية / الجامعية للفكر القائم على تكامل التخصصات، على قدر المقاومة التي كانت تواجه بها [جامعة] السوربون في القرن السابع عشر تطور العلوم.

إن إمكانية التفكير والحق في التفكير أمران يلقيان الرفض بالمبدإ نفسه الذي يحكم التنظيم التخصصي للمعارف العلمية

وبانغلاق الفلسفة على نفسها. فمعظم الفلاسفة يستنكفون أن يكرسوا تفكيرهم للمعارف الجديدة التي تبدل من تصورات العالم والواقع والإنسان، إلخ. ولأول مرة، في [سياق] التقليد الذي ظهر في اليونان، أصبح هؤلاء الفلاسفة ينصرفون عن الكون وعن قدر الإنسان في العالم وعن معضلات الواقع. إن العالم يحتضر وهم يتداولون في جنس أوديب ويتناقشون في العالم المعيش *Lebenswelt* من غير عيش *Leben* في العالم *Welt*.

العقلانية الزائفة

إن العقلانية الزائفة، أعني العقلانية المجردة ذات البعد الأحادي، تحوز الغلبة على الميدان؛ نرى ذلك في عمليات الضم المتسرعة للأراضي وفي الأخاديد مفرطة العمق والطول والاجتثاث غير المراقب للأشجار وتسمين السبل والتعمير الذي لا يتغيا سوى الرفع من مردودية سطح الأرض، والوظيفية التخطيطية المزعومة التي لا تقيم اعتباراً إلى الاحتياجات التي تعجز عن تكميمها وتحديدها استماراتُ الأسئلة، قد أدت جميعاً إلى تكاثر الضواحي السكنية والمدن الجديدة التي سرعان ما تحولت إلى معازل تغرق في الضجر والقذارة وصنوف من التدهور وامحاء الشخصية والجنوح.

ولقد رأينا في جميع الأمكنة ولعشرات السنين كيف جيء بحلول بزعم أنها عقلانية من لدن خبراء قد آمنوا بالعمل في خدمة العقل والتقدم، وأنهم لا يلاقون إلا ضروباً من الخرافات في

العادات وأشكالاً من المخاوف لدى السكان، فإذا تلك الحلول قد أدت إلى الفقر فيما هي تنشد الثراء، وأدت إلى الخراب فيما هي تنشد الابتكار. وإن أعظم منجزات هذه العقلانية قد تحققت في الاتحاد السوفييتي؛ من قبيل تغيير مجاري الأنهار لكي يتسنى حتى في الأوقات المطبوعة بالحرارة الشديدة سقي الهكتارات الخالية من أي أشجار والتي أقيمت فيها زراعة القطن، فكانت عواقب هذه العملية ارتفاع ملوحة التربة بفعل صعود الملح من الأرض وتبخر المياه الجوفية ونضوب مياه الأورال.

إن الذكاء المجزأ والمقسم والممكنن، والذكاء المفرّق والمختزِل يفتت مركب العالم إلى أجزاء منفصلة، ويقسم المشكلات ويحل المترابط ويصيِّر المتعدد الأبعاد أحادي البعد. وهو ذكاء قصير النظر وبعيده معاً، وذكاء دلتوني* وأعور، وينتهي به المطاف في معظم الأحيان إلى العمى. إنه يئد في المهد كل إمكانية للفهم والتفكير فيلغي بذلك كل حظ في الحكم الصحيح أو في النظر البعيد. وبذا فكلما تزايدت أبعاد المشكلات إلا زاد عجزنا عن تفكير أبعادها المتعددة، وكلما استفحلت الأزمة إلا زاد عجزنا عن تفكير الأزمة وكلما صارت المشكلات كوكبية إلا قعد عنها التفكير. لقد عجز الذكاء الأعمى عن تصور السياق والمركب الكوكبي، فصار لاوعياً وغير مسؤول. لقد صار جامداً ليس فيه حياة.

*-(هـ. م) مصاب بعمى الألوان.

أحد مظاهر المشكلة الكوكبية هو المتمثل في أن الحلول العقلية العلمية أو الفلسفية التي يُلجأ إليها في العادة قد باتت اليوم تعتبر في حد ذاتها أخطر المشكلات وأعظمها والتي ينبغي التعجيل بالإتيان لها بحلول. فكما قال أوروليو بيشاي وجايساكو إكيدا[3]: «إن المقاربة الاختزالية التي تتمثل في الركون إلى سلسلة واحدة من العوامل لحل جميع المشكلات التي تطرحها الأزمة متعددة الأشكال التي نجتازها اليوم يمثل في حد ذاته مشكلة أكثر مما يمثل حلاً».

ترميم العقلانية ضد العقلنة

إن الفكر المجزأ والذكاء الأعمى يؤكدان بعضهما ويؤمنان ببعضها. وأما العقلانية الحقة فهي منفتحة، وهي تحاور الواقع الذي يتأبى عنها. والعقلانية تظل في حركة متواصلة غدواً ورواحاً بين المنطق والتجربة. والعقلانية ثمرة النقاش الأفكار بالحجج والأدلة، وما هي بحكر على نظام معين للأفكار. والعقل الذي يجهل بالكائنات ويجهل بالذاتية ويجهل بالوجدان والحياة عقل لاعقلاني. فينبغي أن نحسب حساباً للأسطورة والحنان والحب والندم والنظر إليها من الناحية العقلانية. والعقلانية الحقة تعرف حدود المنطق وحدود الحتمية وحدود الآلية، وتعرف أن الفكر البشري لن يكون كلي العلم وأن الواقع ينطوي على أسرار وألغاز. والعقلانية الحقة

3- *Cri d'alarme pour le XXI^e siècle*, PUF, 1986.

تتدبر غير المعقلن والغامض وغير القابل للعقلنة. وينبغي للعقلانية الحقة أن تصارع العقلنة التي تمتح من المصادر نفسها التي تمتح منها، غير أنها لا تحتوي، في لغزها المنسجم الذي يراد له أن يكون شمولياً، على غير شذرات من الواقع. فما هي بالناقدة فحسب، بل وناقدة لذاتها أيضاً.

فما العقلانية بخاصية – بمعنيي هذه الكلمة : 1) الصفة التي تُخص بها بعض الأذهان (العلمية والتقنية)، والتي تفتقر إليها الأذهان الأخرى، و2) المال الذي يملكه التقنيون والعلميون.

وأن نصير واعين بهذا الأمر شيء يدفعنا إلى الإقلاع عن الوهم، الغربي الخالص، ونقلع عن الاعتقاد بأننا نمتلك العقلانية وأن نتعود أن نحكم على كل ثقافة حسب إنجازاتها التقانية. فينبغي أن ننظر إلى الهوية الأرضية للكائن البشري في تعقدها.

تفكير السياق والمركب

لا يمكن تصور الهوية الأرضية والإناسية السياسية[4] من غير فكر قادر على الربط بين المفاهيم المنفصلة والمعارف المجزأة. فالمعارف الجديدة التي تجعلنا نكتشف الأرض الوطن – والأرض النسق والأرض الغاية والمحيط وموقع الأرض من الكون– ليس لها من معنى ما دامت منفصلة عن بعضها. ولنكرر القول إن الأرض ليست جماع كوكب مادي ومحيط حيوي، وبشرية. بل

4 - *Introduction à une politique de l'homme*, Nouvelle édition, coll. Points, Seuil, 1999.

الأرض كلية مركبة مادية وحياوية وإناسية؛ حيث الحياة انبثاق عن تاريخ الأرض والإنسان انبثاق عن تاريخ الحياة الأرضية. ولا يمكن تصور العلاقة بين الإنسان والطبيعة بطريقة اختزالية ولابطريقة منفصلة. فالإنسانية كنه كوكبي وحيوي. والكائن الإنساني هو كائن طبيعي وفوطبيعي معاً، ينبغي أن يكون مصدره من الطبيعة الحية والفيزيقية، بيد أنه يصدر عنها ويتمايز عنها بالطبيعة والفكر والوعي.

إن الأفكار الوظيفية التي تفكك كل ما هو شمولي، إنما تجهل بطبيعة المركب الإناسي والسياق الكوكبي. غير أنه لايكفي أن نلوح بالشمولية؛ فينبغي الجمع بين عناصر الشمول في تمفصل تنظيمي مركب، وينبغي وضع هذا الشمول نفسه في سياق. إن إصلاح الفكر الضروري هو إصلاح لفكر للسياق وللمركب.

فكر السياق

ينبغي أن نفكر السياسة والاقتصاد والديمغرافية والبيئة وحماية الكنوز الحياوية والثقافية المحلية–كما في الأمازون حيث الثقافات الهندية والغابة –، وتنوعات حيوانية ونباتية وتنوعات ثقافية – هي ثمار لتجارب ضاربة بجذورها في الزمن وغير قابلة للفصل عن التنوعات الثقافية، إلخ. غير أنه لا يكفي إدراج جميع الأشياء والأحداث في «إطار» أو «أفق» كوكبي. فينبغي البحث على الدوام عن علاقة اللاانفصال والتداخل والتفاعل والفعل بين كل ظاهرة وسياقها وبين كل سياق والسياق الكوكبي.

إن ثمة ضرورة لفكر يربط بين ما هو منفك ومقسم، ويحترم المتنوع مع الإقرار بالواحد، ويحاول أن يميز التواقُفات،

- فكر متعدد الأبعاد،

- فكر منظم ونسقي يتصور العلاقة الكل / الأجزاء، مثلما بدأ يتطور في علوم البيئة وعلوم الأرض،

- فكر مبيُّأ لا يعزل الموضوع المراد بالدراسة بل ينظر إليه من خلال علاقته الذاتية والبيئية والتنظيمية مع محيطه الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والطبيعي،

- فكر يتصور بيئة العمل وجدل العمل، ويكون قادراً على [الإتيان بـ] استراتيجية تسمح بالتعديل من العمل المباشَر، بل وتسمح بإلغائه،

- فكر يعترف باكتماله ويفاوض في إطار من اللايقين خاصة في العمل، إذ لا يكون عمل إلا في ما هو غير يقيني.

إن الضرورة تدعو إلى مواجهة المشكلات التي تنطوي على لا يقينيات وعلى غير متوقعات، متواقفة ومتعالقة على الصعيد الكوكبي السريع نسبياً (فرانسيسكو دي كاستري)، مع ما فيها من تقطعات غير خطية واختلالات توازن وسلوكات «فوضوية» وتشعبات.

إن الخاص يغدو مجرداً عندما يتم عزله عن الكل الذي يدخل في تكوينه. والشمولي يغدو مجرداً عندما لا يكون سوى كل

منفصل عن أجزائه. وأما فكر المركب الكوكبي فهو يحيلنا على الدوام من الجزء إلى الكل ومن الكل إلى الجزء.

والصيغة المركبة للإناسة السياسية لا تنحصر في «التفكر شمولياً والفعل محلياً»، بل إنها تترجم إلى ثنائيات: أن نفكر شمولياً / نفعل محلياً، ونفكر محلياً / نفعل شمولياً. فالفكر الكوكبي لم يعد يعارض بين الشمولي والملموس ولا بين العام والفردي؛ فلقد أصبح الكلي فردياً—إنه العالم الكوني وملموساً—وهو العالم الأرضي.

وقد رأى كثيرون في ضياع الكلي ضياعاً لعقلانية مزعومة يعتبرها المعقلنون بمثابة صعود للاعقلانية.

حقاً إن ثمة أزمة في الكلية التطورية المجردة، لكن توجد أزمة كذلك في السيرورة نفسها التي يتموضع فيها كل شيء في العالم الفريد الذي هو عالمنا، بدأنا، مؤخراً، ظهور العالم الملموس.

ترميم الفكر

لا يوجد مكان مقرر للفكر في عالم التخصصات. فهنالك فلاسفة ومفكرون يفكرون، وهنالك لاعلميون ولا فلاسفة يفكرون، لكن التفكير يبدو نشاطاً خديماً للعلم وخديماً للفلسفة فيما العلوم والفلسفات محكومة بأن تفكر الإنسان وتفكر الحياة وتفكر العالم والواقع، ومن المفترض بهذا التفكير أن يكون له مفعول راجع على العلوم وأن يوجه الحياة.

إن إصلاح الفكر مشكلة إناسية وتاريخية هامة.

ولم يحدث في تاريخ البشرية أن كانت مسؤوليات الفكر بهذا الثقل الذي صارت إليه اليوم.



ظهور المجتمع العالمي



عولمة جمعية

تمثل العولمة التي ظهرت في مطلع القرن العشرين المرحلة الراهنة من عهد كوكبي كان قد استُهل في القرن السادس عشر بغزو الأمريكتين والتوسع الذي كان للقوى الأوروبية الغربية على العالم. وقد اتسمت تلك السيرورة بالنهب والاسترقاق والاستعمار بيد أن العهد الكوكبي يشهد كذلك تطوراً من نوع آخر.

والواقع أن الحضارة الغربية قد أنتجت نقائض للهمجية التي خلقتها؛ ومع أن هذه النقائض غير كافية وضعيفة، فهي قد تأكلت العبودية من الداخل؛ فالأفكار التحررية وتولي المستعبدين أمورهم بأنفسهم قد أديا إلى إنهاء الاستعمار عن القسم الأكبر من كوكب الأرض. وإنها لمفارقة تاريخية عجيبة لا تزال تتأكد صحتها من جديد أن نرى حقوق المرأة، وهي التي كانت على الدوام البؤرة الكبرى للهيمنة، قد صارت كذلك البؤرة التي تتمحور حولها الأفكار التحررية. لذلك وجب النضال ضد الإمبريالية الغربية من أجل تطبيق القيم الغربية.

تندرج عولمة بداية القرن العشرين في سيرورة مزدوجة من هيمنة / تحرر، وتضفي عليها خصائص جديدة. إن انفجار الكليانية

وانهيار الاقتصادات البيروقراطية للدول تخدم اندفاعاً ديمقراطياً على جميع القارات وتوسعاً للسوق التي أصبحت بحق سوقاً عالمية، في كنف الليبرالية الاقتصادية، وإذا الرأسمالية قد ازدادت طاقة بفعل توسع إعلامي هائل، فاكتسح اقتصادُ السوق سائر قطاعات البشر والحياة والطبيعة؛ وبارتباط بذلك فإن عولمة شبكات التواصل التلقائي تزيد في حيوية السوق العالمية وتزداد منها حيوية.

وبذا فالعولمة التي ظهرت في سنوات التسعينيات تمارس عولمة تقنية واقتصادية، وهي تشجع في الوقت نفسه على عولمة أخرى وإن تكن لا تزال منقوصة وضعيفة لكنها ذات طابع إنسانوي وديمقراطي، تلاقي التضييق من العواقب والتبعات المترتبة عن أنواع الاستعمار والعجز الذي يظهر في التفاوتات الفاحشة ناهيك عن التهافت الكبير على الربح.

مجتمع عالمي؟

يمكن اعتبار هذه العولمة التقنية الطور النهائي من [سيرورة] التكوكب. ويمكن اعتبارها في الوقت نفسه ظهوراً لبنية تحتية لنوع جديد من المجتمع؛ ذلك هو المجتمع العالمي.

إن المجتمع يكون له مجال ترابي يشتمل على نظام للتواصل. وكوكب الأرض مجال ترابي يتمتع بنسيج من أشكال التواصل (الطائرة والهاتف والفاكس والأنترنيت)، لم يسبق أن تهيأت لأي مجتمع في الماضي.

والمجتمع يمتلك اقتصاداً، والاقتصاد قد أصبح اليوم عالمياً لكن تنقصه إكراهات المجتمع المنظم (القوانين والحقوق وأشكال المراقبة) والمؤسسات العالمية الحالية، كصندوق النقد الدولي وغيرها من المؤسسات، قد باتت عاجزة عن القيام بالتقنينات حتى أشدها بساطة.

والمجتمع لا يمكن فصله عن الحضارة. وتوجد حضارة عالمية منحدرة من الحضارة الغربية تتطور بتفاعل العلم والتقنية والصناعة والرأسمال، وتشتمل على عدد من القيم المعيارية.

والمجتمع إذ يشتمل في ذاته على ثقافات متعددة يُحدث كذلك ثقافة خاصة به. والحال أنه توجد عدة تيارات عبرثقافية تشكل أشبه بثقافة كوكبية. فقد أنتجت وسائل الإعلام خلال القرن العشرين وأشاعت وصنعت فولكلوراً عالمياً من موضوعات أصلية استمدتها من ثقافات مختلفة؛ فبعضاً استمدته من جذوره وبعضاً ابتدعته ابتداعاً. وقد تشكل الفولكلور الكوكبي وصار يغتني بما يندمج فيه ويتلاقى. وانتشر هذا الفولكور في عالم الجاز الذي ألف بين شتى الأساليب ابتداء من أورليانز الجديدة والطانغو الذي ظهر في الأحياء الشعبية من بيونيس آيرس والبامبو الكوبي والفالس الفييني والروك الأمريكي الذي خلق هو الآخر أنواعاً متمايزة في العالم أجمع. وقد أدمج الفولكلور الكوكبي في صلبه السيتار الهندي الذي استمده من رامي شنكر والفلامنغو الأندلسي والوصلة العربية كما في أغاني أم كلثوم والهويانو عند الهنود. فإذا الروك الذي ظهر في الولايات المتحدة قد صار يتأقلم مع لغات العالم

وصار يتقمص في كل بلد هويته الوطنية. واليوم يرقص الناس في بكين وفي كانتون وفي باريس وفي موسكو ويحتفلون ويتواصلون بالروك، وتأخذ الشبيبة في سائر البلدان تحلق على إيقاع واحد فوق الكوكب الواحد. ولقد أثارت إشاعة الروك العالمي في معظم البلدان أشكالاً من المبتكرات الجديدة، من قبيل الراي، ثم إنه قد خلق من مزيج الراي ما يشبه الحساء الإيقاعي قد اندغمت فيه الثقافات الموسيقية من العالم أجمع.

وإنه لأمر رائع أن تنتج الآلات الثقافية العجيبة في السينما والغناء والروك والتلفزة، التي يحركها الربح، والمنظمة وفق تقسيم شبه صناعي للعمل، خاصة في هوليود، أمر رائع أن تنتج تلك الآلات أعمالاً جيدة وقوية ولا تقتصر على إنتاج الأعمال الرديئة. فقد تحققت الإبداعية ولا تزال، في هذه الميادين جميعاً، كما سبق لي أن بينت ذلك في [مؤلفي] «**روح الزمن**»[1]، فلا يمكن إنتاج سلسلة من الأفلام أو الأغاني المتطابقة بل ينبغي أن يكون كل فيلم وكل أغنية قد توفرت لهما الفرادة والأصالة؛ فالإنتاج يتطلب الإبداع بالضرورة. وكثيراً ما يخنق الإنتاجُ الإبداع، لكن يحدث أن يتيح الإبداع ظهور أعمال عظمية؛ فلقد تحقق الازدهار لفن السينما في شتى البلدان وفي جميع القارات، حتى بات فناً معولماً لكن مع الحفاظ للفنانين وللثقافات على أصالاتهم...

1- *L'Esprit du temps*, Grasset, 1962 ;

طبعة مزيدة، تصدر أواخر 2007 عن Armand Colin

وعندما يتعلق الأمر بالفن والموسيقى والأدب والفكر لا تصير العولمة الثقافية عولمة مجنّسة تساعد على التعبير عن الأصول الوطنية في صلبها. فالاختلاطات والتهجينات والشخصيات العالمية أو مزدوجة الثقافة (أوكتافيو باث و[سلمان] رشدي وأرجوان أبادورا) لا تفتأ تثري هذه الحياة العبرثقافية. وبذا فثقافات العالم أجمع يثري بعضها بغضاً في الضراء أحياناً، وفي السراء في كثير من الأحيان، وهي لا تزال بعد لا تفقه أنها كأبناء لكوكب واحد.

ولنضف إلى ما ذكرنا المشاعر الجماعية العابرة للقوميات والمستعلنة من خلال عولمة الثقافة اليافعة وعولمة العمل النسائي.

وعلاوة على ذلك، وكما هو الشأن في كل مجتمع، فقد نشأت خلفية *underground*، لكنها كانت في هذه المرة كوكبية وما فيها من إجرام. فابتداء من سنوات التسعينيات انتشرت المافيات العابرة للقارات (المتاجرة خاصة في المخدرات والبغاء).

وفي الأخير فإن عولمة الأمة التي اكتملت في أواخر القرن العشرين قد باتت تضفي على كوكب الأرض سمة مشتركة حضارية وثقافية، لكنها تزيد في الوقت نفسه من تجزيء هذا الكوكب والسيادة المطلقة للأمم باتت تقوم عائقاً على وجه التحديد دون ظهور مجتمع عالمي. إن الأمة، وهي تحريرية وقامعة [معاً]، تجعل من الصعوبة البالغة إنشاء اتحادات تستجيب إلى الاحتياجات الحيوية للقارات وتحول دون ميلاد اتحاد كوكبي.

من أسف أن الشركات العالمية التي كانت تخلق تكافلاً كوكبياً بين العمال قد صارت إلى اضمحلال، لكن المطامح التي كانت تغذيها قد عادت إلى الانبثاق من خلال طليعيات من المواطنية الأرضية.

وقد كان غاري ديفيز هو المبشر الذي أنشأ بعد الحرب العالمية الثانية الجمعية الدولية «مواطنو العالم»*، التي وإن تكن هامشية فإنها لا تزال تتعهد الأمل في الوحدة الكوكبية.

وابتداء من سنوات السبعينيات صارت جمعيات الأطباء تتوجه إلى كافة الأصقاع لمداواة الأدواء، لا تميز بين عرق أو دين. وهذه منظمة العفو الدولية* تدافع عن حقوق الإنسان في كل أنحاء الأرض وتفضح الحبس التعسفي والتعذيب المسلط من الدولة. وهذه منظمة السلام الأخضر* قد كرست جهودها للمهمة الحيوية للحفاظ على المجال الحيوي. وهذه منظمة «البقاء الدولي»* تتفرغ لبسطاء الناس المهددين في جميع القارات بالإبادة الثقافية أو المادية. وكثير من المنظمات غير الحكومية تكرس نفسها لمشكلات تعم البشرية جمعاء، خاصة ما تعلق منها بالمساواة في الحقوق بالنسبة للنساء.

ولقد تحققت قفزة نوعية في دجنبر 1999. فالمظاهرة المعادية في سياتل للعولمة التقنية والاقتصادية قد تحولت إلى مظاهرة للمطالبة

---

* *Citoyens du Monde*
* *Amnesty International*
* *Greenpeace*
* *Survival international*

بعولمة أخرى، كان شعارها هو «العالم ليس سلعة». وقد صار هذا الوعي الذي تحقق بضرورة الإتيان برد على الصعيد الكوكبي يمتد ليشكل قوة اقتراحية. وبذلك أصبحت مدينة بورتو أليغري منتدى قد ائتلف فيه مجتمع عالمي وليد.

وينبغي أن نعرف كذلك ما تجاهلته وسائل الإعلام، وأن التحالف من أجل عالم مسؤول ومتكافل قد نظم طوال عشرة أيام في ليلْ، في مطلع دجنبر 2001، تجمعاً لمواطني العالم* ضم 700 من رعايا جميع البلدان ومن جميع القارات، فجمعتهم نقاشات انطبعت بحمية مشهودة تأدوا من خلالها إلى وضع ميثاق للمسؤوليات الإنسانية.

وفي مارس من سنة 2001 أنشئت، بمبادرة من فدريكو مايور المدير السابق لليونسكو، «شبكة لشبكات المجتمع المدني العالمية»* سميت «أوبونتو» (وهي كلمة إفريقية تعني «الإنسانية»). وقد اجتمعت «أوبونتو» في مارس 2002 من أجل «تحقيق جدول عن قابلية إعمال الحكامة الديمقراطية»، بهدف إحداث «إصلاح عميق لنظام المؤسسات الدولية».

وانعقد اجتماع في بليد في أكتوبر 2001 بمبادرة من رئيس سلوفينيا، تأسس على أثره في 20 فبراير 2002، «مجمع دولي أخلاقي وسياسي وعلمي»*، اضطلع بمهمة « التنبيه إلى المخاطر الكبرى التي تتهدد الإنسانية»، بغاية مواجهتها بـ «رد حضري وأخلاقي».

* Assemblée des citoyens du monde
* « réseau des réseaux de la société civile mondiaux»
* Collège international éthique, politique et scientifique

وعليه فإذا كان كوكب الأرض يشكل مجالاً ترابياً يمتلك نظاماً للاتصالات واقتصاداً وحضارة وثقافة وطليعة للمجتمع المدني فإنه يفتقر إلى عدد من الإجراءات الأساسية الداخلة في التنظيم وفي الحق وهيأة للسلطة والتقنين في الاقتصاد والسياسة والشرطة والمجال الحيوي والحكم والموطنة. ولا يمكن لمنظمة الأمم المتحدة أن تشكل من نفسها سلطة عالمية إذ يشلها نظامها للفيتو. ولم يتسن لمؤتمر كيوتو أن يكون هيأة لحماية المجال الحيوي. وفي الأخير فإن المجتمع العالمي لا يمكنه أن يخرج إلى النور إلا بجيش وشرطة دولية.

لم يخرج المجتمع العالمي بعد إلى الوجود، والوعي بأننا مواطنون في الأرض الوطن لا يزال مشتتاً وجنينياً.

وجملة القول إن العولمة وضعت البنية التحتية لمجتمع عالمي تعجز عن بنائه. فلقد تهيأت لنا الأسس والقواعد، لكن لم يتهيأ البناء. وتهيأت الأجهزة والمعدات *hardware* ولم تتهيأ البرامج *software*.

صدمة 11/9

لقد شكل 11 شتنبر 2001 صدمة كهربية حاسمة على مصير المجتمع العالمي؛ نشرت على المعمور بفعل ذلك التدمير الذي وقع على برجيّ مانهاتن، شعوراً بتهديد شامل لكوكب الأرض. ثم كان في اكتشاف شبكة سرية سياسية ودينية لها فروع في كافة البلدان، وتتمتع بقدرة تدميرية غير معهودة، ما خلق الحاجة إلى شرطة ودرك والحاجة إلى مؤسسات كان لها دور حاسم في ظهور مجتمع

عالمي. ولقد سعى تنظيم «القاعدة» إلى تدمير العولمة فكانت سبباً إلى تكوُّن شرطة عالمية.

لقد جعِلت منظمة الأمم المتحدة بطبيعة الحال لتكون القوة الشرطية الكوكبية. لكن القاعدة إذ ضربتها في مقتل دفعت بالولايات المتحدة، بحكم مشاركتها في كل ما يهم العالم واقتصادها الجبار إلى الاضطلاع بمهمة إنشاء شرطة عسكرية عالمية باسم «الحرب على الإرهاب». وإن في عبارتيِّ «الدولة السوقية» و«الدولة الجانحة» ما يبين بوضوح نوعية الشرطي الذي يقوم على هذه الحرب. فقد تهيأ منذ 11 شتنبر 2001 منظوران اثنان: منظور يقول بتطوير كفاءات الأمم المتحدة، بحيث تصير لها شرطتها وجيشها وتصير تسعى إلى تشكيل مجتمع عالمي اتحادي، ومنظور يقول بتسيير إمبريالي تشكله الولايات المتحدة وتسعى به إلى تشكيل إمبراطورية عالمية. وقد سعى تنظيم «القاعدة» إلى تقويض هيمنة الأمم المتحدة، لكن هذا التنظيم لم يزد إلى اليوم على أن قوَّى من شكيمتها، وربما سيجعلها قوية لوقت طويل.

ولقد تعبأت منظمة الأمم المتحدة، لكن قيادة الأمور عادت إلى الولايات المتحدة.

إن الحاجة إلى شرطة كوكبية أمر تفطن إليه جورج بوش لكن من أسف أنه لم يتفطن إلى الحاجة إلى سياسة كوكبية. فيمكن للقمع أن يقضي على الأعراض، لكنه لن يقضي على الأسباب بل يمكنه بوجه خاص أن يغذيها. وحدها سياسة تقوم على الصعيد العالمي يمكنها أن تعالج الأسباب. وهي أسباب تكمن في التفاوتات

وفي مظاهر الجور والجحود. فالأمر يدعو إلى التأليف بين الحكمة العالمية *world politics* والسياسة العالمية *world policy*. لو لا أن الحكمة العالمية قد هزُلت تحت قيادة الأمم المتحدة والسياسة العالمية قد تضخمت. بل وقع ما هو أسوأ؛ فقد وصِمت أشكال المقاومة التي تبذلها الشعوب المقموعة بالإرهاب من لدن مضطهديها وخلقت «الحرب على الإرهاب» تحالفاً بين القوى المهيمنة ضد المقاومات الوطنية. وحدث ما هو أشد سوءاً؛ فقد أصبحت كلمة «إرهاب» تنطوي على إرهاب الدول التي تمارس قمعاً أعمى على سكانها المدنيين، في الشيشان وفي إسرائيل حيث شجعت على القصف الجوي الرهيب لتصفية المقاومة الفلسطينية.

التحلل من التنمية

أي سياسة تلزم لتكوُّن مجتمع عالمي، لا في صورة اكتمال كوكبي لإمبراطورية هيمنية، بل على أساس من اتحاد حضاري؟

فلندعُ ههنا لا إلى برنامج أو إلى مشروع، بل إلى المبادئ التي تسمح بتمهيد السبيل. وهي مبادئ لما أسميته الإناسة السياسية *Anthropolitique*[2](سياسة الإنسانية على الصعيد الكوكبي) والسياسة الحضارية[3].

وينبغي أن يكون في كل ما ذكرنا سبب يقودنا أولاً إلى التحلل من لفظ التنمية، ولو كان تم تهذيبها وتجميلها بالقول تنمية مستدامة أو مدعومة أو إنسانية.

2- *Introduction à une politique de l'homme*, op. cit..
3- *Pour une politique de civilisation*, Arléa, 2002

لقد اشتملت فكرة التنمية على الدوام على أساس تقني واقتصادي يمكن قياسه بمؤشرات النمو ومؤشرات الدخل. وتفترض هذه الفكرة على نحو ضمني أن التنمية التقنية والاقتصادية هي القاطرة التي من الطبيعي أن تجر وراءها «التنمية الإنسانية»، التي يعتبر نموذجها الكامل والناجح هو الذي تمثله البلدان المدعاة متقدمة أو غربية. وتفترض هذه الرؤية أن الحالة الراهنة التي توجد عليها المجتمعات الغربية تمثل الهدف والغاية للتاريخ الإنساني.

إن التنمية «المستدامة» لا تزيد عن أن تلطف من [مفهوم] التقدم باعتبار للسياق البيئي، لكن من دون أن تعيد النظر في مبادئه. ففي [عبارة] التنمية الإنسانية تكون الكلمة «إنسان» فارغة من كل جوهر، إلا أن يكون يحيل إلى نموذج إنساني غربي ينطوي حقاً على سمات إيجابية في أساسها، لكنه، ولنكرر القول، ينطوي كذلك على سمات سلبية في أساسها.

ولذلك فالتنمية، وهي تبدو في ظاهرها مفهوماً عمومياً يشكل أسطورة نموذجية للمركزية الثقافية الغربية ومحركاً للتغريب المجنون وأداة لاستعمار «المتخلفين» (الجنوب) من طرف الشمال. ولقد أصاب سيرج لاتوش في قوله: «إن هذه القيم الغربية (قيم التقدم) هي بالتحديد القيم التي ينبغي أن يعاد فيها النظر من أجل إيجاد حل لمشكلات العالم المعاصر»[4].

إن [دعاة] التقدم يجهل[ون] بكل ما ليس قابلاً للعد ولا للقياس أي أنهم يجهلون بالحياة والمعاناة والفرح والحب، وإن مقياسهم

4 - *Le Monde diplomatique*, mai 2001.

الوحيد للرضا هو نمو الإنتاج والإنتاجية والدخل النقدي. و[دعاة] التقدم إذ يقتصرون في تصورهم للتقدم على الاعتبارات الكمية تغيب عنهم كيفيات الوجود وكيفيات التضامن وكيفيات الوسط وجودة الحياة والثروات الإنسانية غير القابلة للعد ولا للقياس أو للبيع. فهم يجهلون بالمَلَكة والشهامة والشرف والضمير. فالتقدم يزيل في مسيره الكنوز الثقافية والمعارف بالحضارات العتيقة والتقليدية، ومفهوم التخلف ذلك المفهوم الأعمى والفاحش يدمر فنون العيش وحِكَم الثقافات التليدة.

وعقلانية التنمية، تلك العقلانية التكميمية، هي عقلانية لاعقلانية؛ كما يظهر من احتسابها في الناتج الداخلي الخام جميعَ الأنشطة المولدة للدفق النقدي باعتبارها أنشطة إيجابية ولو كانت كوارث، كغرق «إريكا» أو إعصار 1999، وعندما تهمل الأنشطة الخيرة المجانية.

إن [دعاة] التنمية يجهد[ون] أن النمو التقني والاقتصادي ينتج كذلك تخلفاً أخلاقياً ونفسياً. فالإفراط في التخصص المعمم وأشكال التجزيء في جميع المجالات والإفراط في النزعة الفردانية وروح الربح والفائدة تؤدي إلى ضياع التضامن. إن التربية التخصصية في العالم المتقدم تحمل معارف كثيرة، لكنها تولد معرفة تخصصية تعجز عن إدراك المشكلات متعددة الأبعاد وتفضح عجزاً ثقافياً عن التعرف على المشكلات الأساسية والشمولية.

إن التنمية، وهي التي تعتبر شيئاً خيراً وإيجابياً، تنطوي على كل ما هو إشكالي وضار ومهلك في الحضارة الغربية، لكن من غير

أن تشتمل بالضرورة على ما فيها من عناصر خيرة (حقوق الإنسان والمسؤوليات الفردية والثقافة الإنسانوية والديمقراطية).

حقاً إن التنمية تحمل أشكالاً من التقدم العلمي والتقني والطبي والاجتماعي، بيد أنها تحمل كذلك أشكالاً من تدمير المجال الحيوي وضروباً من التدمير الثقافي وأوجهاً جديدة من التفاوت وصنوفاً جديدة من العبودية، ليحلها محل أشكال العبودية القديمة. والتنمية التي يطلقها العلم والتقنية تنطوي على تهديد بالإبادة (النووية والبيئية) وبسلطات رهيبة للتحكم [في الأناسي]. وربما أمكن التنمية المستدامة أو التنمية المدعومة أن تخفف من سرعة هذا التيار التخريبي أو تلطف منها لكنها لا تقدر أن تحول ذلك التيار. فتكون الضرورة تدعو لا إلى التخفيف من السرعة أو التلطيف منها، بل إلى تصور انطلاقة جديدة.

وفي الأخير فإن التنمية التي نموذجها ومثالها وغايتها الحضارة الغربية يغيب عن [دعاتـ]ـها أن هذه الحضارة توجد في أزمة، وأن رفاهيتها تنطوي على كرْب، وأن نزعتها الفردانية تنطوي على حواجز عرقية مركزية وانعزالية، وأن أوجه الازدهار العمراني والتقني والصناعي فيها تنطوي على رهَق وعلى إضرار، وأن القوى التي أطلقتها [في سياق] «تطور»ها تقود إلى الموت النووي وإلى الموت البيئي. فحاجتنا ليست في الاستمرار بل في بداية جديدة.

كل تنمية جديدة تفترض تراجعاً

ويجهل [دعاة] التنمية بأن التقدم الحقيقي لا يمكن أن ينطلق من الحاضر، بل يقتضي عودة إلى الطاقات البشرية التوليدية؛ أي

أنه يقتضي إعادة توليد. فكما أن الفرد يحمل في جسمه الخلايا الجذعية التي يمكنها أن تجدده، فكذلك الإنسانية تنطوي على مبادئ لتجددها، لكنها تكون راقدة ومحصورة في التخصصات وصنوف التصلبات الاجتماعية. وإن تلك المبادئ هي التي تسمح بإحلال مفهوم سياسة إنسانية (إناسية سياسية)، كنت دعوت إليها منذ وقت طويل[5]، وإحلال مفهوم سياسية حضارية محل مفهوم التنمية[6].

من أجل سياسة للإنسانية

ستكون المهمة الأشد إلحاحاً واستعجالاً في سياسة الإنسان هي تحقيق التضامن على كوكب الأرض.

ولأجل ذلك فالمفترض في وكالة للأمم المتحدة أن تتوفر على أموال خاصة بالإنسانية المحرومة والمريضة والبائسة، ويفترض بها أن تشتمل على مكتب عالمي يقدم الأدوية بالمجان لعلاج السيدا والأمراض المعدية، ومكتب عالمي للتغذية لأجل الساكنة الفقيرة أو المتعرضة للمجاعات، ومساعدة أساسية للمنظمات غير الحكومية التي تُعنى بالقضايا الإنسانية. ويفترض بالأمم الغنية أن تبادر إلى تعبئة مكثفة لشبيبتها في خدمة مدينة كوكبية حيثما دعت إليها الحاجة (من جفاف وفيضانات وأوبئة). فلقد أسيء تقدير

5- *Introduction à une politique de l'homme*

صدرت الطبعة الأولى سنة 1965، وطبعة أخرى مزيدة، في: Le Point, Seuil, 1999.

6- Cf. *Pour une politique de civilisation, op. cit.*

مشكلة الفقر إذ تم النظر إليها من جانب الدخول. فأكثر ما يألم منه الفقراء والبؤساء والمعوزون والمرؤوسون والبروليتاريا إنما هو الظلم والجور، ليس في مواجهة سوء التغذية والأمراض، بل وفي سائر مناحي الحياة التي يكونون فيها محرومين من الاحترام ومن الاعتبار. إن مشكلة المعوزين هي في عجزهم أمام الاحتقار والجهل ونوائب الدهر. فالفقر يتعدى أن يكون مجرد فقر. أي أنه لا يمكن حسابه ولا قياسه بمصطلحات النقد.

ستكون سياسة الإنسانية بالضرورة سياسة تحقق العدالة لجميع أولئك، من غير الغربيين، الذين تُنكر عنهم حقوقهم التي يقر لهم بها الغرب نفسه.

فسياسة الإنسانية ستكون في الوقت نفسه سياسة لتكوين الخيرات الكوكبية المشتركة والحفاظ عليها. وفي حين باتت هذه الخيرات اليوم محدودة ومختلفة المراكز (في القطب الجنوبي وعلى سطح القمر)، فينبغي أن تدخل فيها مراقبة الماء واحتجازه وتحويل مجاريه، فضلاً عن حقول النفط.

ستكون مهمة السياسة الحضارية أن تطور أفضل ما في الحضارة الغربية وتطرح عنها أسوأ ما فيها، وأن تحدث تكاملاً بين الحضارات بأخذها في الحسبان المساهمات الأساسية من الشرق ومن الجنوب. وستكون هذه السياسة الحضارية شيئاً لازماً للغرب نفسه. فالغرب يزداد معاناة من هيمنة الحساب والتقنية والربح على جميع جوانب الحياة الإنسانية، ويزداد معاناة من هيمنة الكم على الكيف ومن انحطاط جودة الحياة في المدن العملاقة، ومعاناة من التصحر

الذي يعتور البوادي بعد أنْ باتت عرضة للفلاحة وتربية المواشي الصناعيتين اللتين ما أكثر ما أوقعتا من كوارث غذائية. والمفارقة تكمن في أن هذه الحضارة الغربية التي تحقق الغلبة في العالم قد باتت تعيش أزمة تنفذ إلى قلبها، وإن في اكتمالها لما يفضح نقائصها.

ينبغي لسياسة الإنسان وسياسة الحضارة أن تتفقا على المشكلات الحيوية لكوكب الأرض. فالمركبة الفضائية الأرض تسير بأربع محركات مشتركة ومتأبية عن المراقبة في الوقت نفسه، هي: العلم والتقنية والصناعة والرأسمالية (الربح). والمشكلة تتمثل في إخضاع هذه المحركات للمراقبة؛ فسلطات العلم وسلطات التقنية وسلطات الصناعة ينبغي أن تخضع لمراقبة الأخلاق، وهي التي لا يمكن أن نفرض مراقبتها إلا بالسياسة. والاقتصاد لا ينبغي أن يخضع للتقنين فحسب، بل ينبغي أن يصير اقتصاداً جمعياً، يتسع للتعاضديات والجمعيات والتعاونيات وتبادل الخدمات.

وعليه فلكي يقتدر المجتمع العالمي على حل مشكلاته الأساسية ومواجهة المخاطر العظمى التي تتهدده يفترض به أن تتوفر له سياسة للإنسان وسياسة للحضارة. لكنه يحتاج في تحقيق هذا المرام إلى حكامة. والحكامة الديمقراطية العالمية قد باتت اليوم بعيدة المنال. غير أن المجتمعات الديمقراطية يجري الإعداد لها بوسائل لاديمقراطية، أي بإصلاحات مفروضة.

وسيكون من المستحب لهذا التسيير أن يتم انطلاقاً من الأمم المتحدة، التي تأخذ من ثم في التكتل، بخلق هيأت كوكبية تتمتع بقدرات على [حل] المشكلات الحيوية و[دفع] المخاطر العظمى

(الأسلحة النووية والبيولوجية وأنواع الإرهاب والبيئة والاقتصاد والثقافة). لكن المثال الذي تقدمه لنا أوروبا يبين البطء الذي يطبع هذا المسار، وهو الذي يتطلب إجماعاً عليه من كافة الشركاء. فكأن الأمر يقتضي تصاعداً للأخطار وحدوث كارثة لكي تقع الصدمة الكهربية اللازمة ليحصل الوعي وتتخذ القرارات.

يمكن للأرض الوطن أن تنبثق من خلال التراجع والتفكك والفوضى والكوارث، من مدنية كوكبية وبروز لمجتمع مدني عالمي واتساع للأمم المتحدة، لا بأن تحل محل الأجزاء، بل بأن تحيط بتلك الأجزاء.

الحاجز الأكبر: الإنسانية نفسها

لقد رسمنا ههنا الخطاطة العقلانية والإنسانوية لمجتمع عالمي وكأن هذا العالم كان ينبغي أن يتشكل وفقاً لهذه العقلانية وهذه الإنسانوية. لكن لن نفلح في أن نخفي عن أعيننا الحواجز الهائلة التي تحول دون هذا التحقق.

وأول هذه الحواجز واقعُ أن الميل إلى توحيد المجتمع العالمي يلاقي مقاومات قطرية وعرقية ودينية تميل إلى بلقنة كوكب الأرض وأن إزالة تلك المقاومات يفترض هيمنة تامة وكاملة.

فنحن نرى في المقام الأول قلة النضج لدى الولايات المتحدة؛ أي قلة نضج في الأذهان وفي الأوعاء؛ أي أننا نرى بشكل أساسي قلة نضج من الإنسانية عن أن تحقق نفسها بنفسها.

ومعنى ذلك في الوقت نفسه أن هذا المجتمع لن يصير مجتمعاً عالمياً متحضراً على النحو الذي كان توقعنا له، بل سيصير، إن قُيض له الوجه أن يتشكل، مجتمعاً عالمياً وحشياً وهمجياً. وهنالك إمكانية لقيام حكومة إمبريالية، تكفلها الولايات المتحدة، لتكون منافسة لإمكانية قيام مجتمع عالمي متحد. ففي الوقت الذي بدأنا نسير صوب مجتمع عالمي إذا نحن نسير كذلك نحو تشكل إمبراطورية عالمية. حقاً إن هذه الإمبراطورية العالمية لا يمكنها بأي حال أن تشمل الصين، لكن يمكنها أن تشمل أوروبا وروسيا بصفة التابعتين.

وحقاً إن الطابع الديمقراطي ومتعدد الأعراق للولايات المتحدة سيحول دون قيام إمبراطورية عنصرية وكليانية، لكنه قد لا يمنع من قيام هيمنة عنيفة وقاسية على غير الامتثاليين وعلى أشكال المقاومة التي تتصدى للمصالح الهيمنية. وفوق ذلك فأياً كانت السبيل إلى الإصلاح فإن المجتمع العالمي لن يلغي من نفسه أشكال الاستغلال والهيمنة والجحود والتفاوتات القائمة. فلن يحل المجتمع العالمي من تلقائه المشكلات الخطيرة التي تحبل بها مجتمعاتنا ويزخر بها عالمنا، لكن تلك هي السبيل الوحيدة التي ربما أمكن للعالم أن يحرز بها التقدم.

وحقاً إننا يمكننا انطلاقاً من مجتمع عالمي، كما يمكننا انطلاقاً من إمبراطورية عالمية، أن نستبين سبيلاً طويلة تقودنا إلى مواطنة وإلى تهدئة كوكبيتين. فلقد تأسست الإمبراطورية الرومانية على قرنين من الصيد والغزو الماحقين، لكن في سنة 212 جاء مرسوم كاراكالا ليمنح المواطنة لجميع رعايا الإمبراطورية.

معنى ذلك أننا وصلنا، ليس إلى نهاية للتاريخ، بل إلى بوادر لبداية جديدة، ستنطوي، ككل البدايات، على همجية وعلى أهوال، وأن السبيل إلى إنسانية متحضرة ستكون طويلة وغير مأمونة. وسنخوض ذلك المسير على نحو ما ابتدأ منذ أن كانت [كارثة] هيروشيما في ظل الموت. وربما كانت تلك البداية نهاية [أيضاً].

وعليه فسواء أكان في مجتمع عالمي أو في إمبراطورية عالمية فإن المشكلة الرئيسة ستظل قائمة.

وليس ما نرى مجرد سورة وتنافس على المصالح والمطامح والسلطات وضروب الاستغلال التي تشجع عليها حالة العالم الراهنة. فليست سورات التعصب هي التي تؤجج الصدامات بين الثقافات؛ بل تسهم فيها كذلك النزَعات الفردانية الغربية كما تسهم فيها النزعات الجماعية التي نراها في كل مكان آخذة في التضخم في وقت واحد على كوكب الأرض، وتشجع الشر الكمين الناجم عن عدم الفهم بين بني البشر. إن الطابع الإنسانوي للمجتمعات الغربية يساعد من الناحية المبدئية على الفهم، بيد أن هذه النزعة الإنسانوية سرعان ما تتعرض للكبت بما تتعارض مع مجتمعات أخرى. والنزعة الفردانية الغربية تشجع على المركزية العرقية والمصلحة الفردية والتبرير الذاتي، أكثر مما تشجع على فهم الآخر وذلك هو السبب في الكوارث التي يحدثها عدم الفهم داخل الأسر والمجموعات وأماكن الشغل، ويحدثها بطبيعة الحال لدى أولئك الذين يفترض بهم أن يدرسوا الفهم : المربون. وفي الوقت نفسه فدعاة الانغلاق للجماعات بعضها عن بعض في جميع الحضارات

يتسببون في ضروب من عدم الفهم بين الشعوب والأمم والأديان. وذلك كان السبب في الانتشار والاتساع الذي صار لألوان من عدم الفهم في الاتساع والاحتداد اللذين صارا يطبعان النزاعات ويتطابقان مع سيرورة ظهور المجتمع العالمي ويجهدان على الدوام لتقويض هذا الظهور.

لم يطلع علينا بودا جديد ولا مسيح جديد ولا نبي جديد ليدعو إلى إصلاح العقول وإصلاح الأشخاص، وهو وحده الذي يمكنه أن يسمح بفهم بني البشر. لكن ينبغي، خدمة للحضارة المعولمة أن تحدث أشكال من التقدم في الفكر البشري، ليس في قدراته التقنية والرياضية، وليس في معرفة التعقدات فحسب، بل وفي دخيلته النفسية. ونحن نرى بوضوح أن إصلاحاً للحضارة الغربية ولسائر الحضارات قد بات أمراً ضرورياً، وأن إصلاحاً جذرياً لجميع أنظمة التعليم قد بات أمراً لازماً، ونرى بالقدر نفسه من الوضوح كيف أصبح يسود الوعي الكامل والعميق بضرورة ذلك الإصلاح.

إن الحاجة إلى هذا الإصلاح الداخلي للأذهان والأشخاص التي باتت ضرورة لازمة للسياسة، هي بطبيعة الحال شيء لا تستبينه السياسات. وكذلك، وعلى نحو مفارق، فإن الخطاطة التي قمنا برسمها لسياسة للبشرية وسياسة للحضارة، وإن تكن توافق إمكانيات مادية وتقنية، فإنها تعتبر إمكانية غير ممكنة في الوقت الحالي. ولذلك ستظل البشرية لوقت طويل تتكبد ألم المخاض أو ألم الإجهاض، أياً كانت السبيل التي ستلزم نفسها بها.

وهكذا فإن المشكلة المبدئية تظل قائمة حتى مع فرضية [قيام] اتحاد كوكبي؛ فإذا لم يكن في الإمكان كف المطامح والنهم إلى الربح والعمى عن الفهم والإدراك، وباختصار إذا لم يكن في الإمكان كف الجوانب الأشد انحرافاً وهمجية وغريزية في الكائن البشري، أو تنظيمها على الأقل، ولم يتهيأ إصلاح للفكر وإصلاح كذلك للكائن البشري نفسه، فإن المجتمع العالمي سيتعرض لكل ما ظل إلى اليوم يعفر وجه التاريخ البشري وتاريخ الإمبراطوريات والأمم بالدم والوحشية. فكيف يتحقق مثل هذا الإصلاح، الذي يفترض إصلاحاً جذرياً لأنظمة التعليم ويفترض وجود تيار قوي من الفهم والتعاطف في العالم ويفترض وجود إنجيل جديد وعقليات جديدة؟

وإن السبيلين لإصلاح للبشرية قد تأدّيتا معاً إلى مأزق واحد. فالسبيل الداخلية، سبيل الأفكار والأرواح وسبيل الأخلاقيات والإحسان والمواساة، لم تفلح قط في القضاء التام على الهمجية البشرية. والسبيل الخارجية، سبيل تغيير المؤسسات والهياكل الاجتماعية، أدت إلى الفشل النهائي والرهيب؛ إذ كان استئصال الطبقة المهيمنة المستغلة دافعاً إلى تكون طبقة جديدة مهيمنة ومستغلة أسوأ من سابقتها. وحقاً إن السبيلين معاً بحاجة إلى بعضهما. فيبغي التأليف بينهما.

كيف؟

إننا لم نصل بعدُ إلى نقطة البداية؛ فنحن في طور تمهيدي ربما أدت فيه سورة متفلِّتة من أي عقال إلى محو كل إمكانية لبداية

جديدة. إنها سوْرة المحرك الرباعي العلم والتقنية والصناعة والربح، مقترنة بسوْرة الهمجيات التي تحدثها وتبتعثها الفوضى الكوكبية.

إن أسوأ تهديد وأكبر تبشير يحدثان في وقت واحد في هذا القرن. فمن جهة نرى التقدم العلمي والتقني يتيح إمكانيات للتقدم لم يكن للناس بها من عهد إلى اليوم، بالقياس إلى الإكراهات المادية والآلات والبيروقراطيات، وبالقياس إلى الإكراهات الحياوية التي يشكلها المرض والموت. ثم إننا نرى من جهة أخرى الموت الجماعي بالأسلحة الذرية والكيماوية والبيولوجية يخني بظله على البشرية؛ فالعصر الذهبي وعصر الرعب يواجهان مجتمعين مستقبلنا. ولربما سيمتزجان في سياق استمراريةٍ، على صعيد اجتماعي جديد، للعصر الحديدي الكوكبي وللفكر البشري في عهد ما قبل التاريخ...

الأمل؟

إن تجاوز [هذه] الوضعية يقتضي تحولاً لاسبيل إلى تصوره بأي حال. غير أن هذه الملاحظة الباعثة على اليأس لا تنطوي على مبدإ من أمل، فنحن نعرف أن التحولات الكبرى لا تكون ممكنة ولا تكون مستحيلة من الناحية المنطقية قبل أن يتأتى لها الظهور. ونعرف كذلك أن التحولات تظهر عندما تغدو الوسائل التي تتوفر لنظام من الأنظمة عاجزة عن حل مشكلاته. وهكذا فإن ملاحظاً محتملاً من كوكب آخر ربما رأى ظهور الحياة، أي ظهور تنظيم جديد أعقد للمادة

الفيزيائية والكيميائية وممتلك لخصائص جديدة؛ شيئاً أبعد عن التصور؛ ولاسيما أنه سيحدث في خضم من الأعاصير والعواصف والزوابع وثورانات البراكين والزلازل الأرضية.

وكذلك فالتحول ليس بالأمر المستحيل، وإنما هو شيء بعيد الاحتمال [فحسب]. وههنا يطالعنا المبدأ الثاني في الأمل: فما أكثر ما يحدث غير المحتمل في التاريخ البشري. فالهزيمة التي منيت بها النازية كانت شيئاً غير محتمل في 1940-1941 وقت أن كان الرايخ الثالث يبسط هيمنته على أوروبا وقد تحقق له النصر الكاسح على الاتحاد السوفييتي.

وفي الأخير فإن هنالك أملا مبدئياً في ما أسماه ماركس «الإنسان الجنسي»؛ فلنذكر بأن الخلايا الجذعية، القادرة على تجديد البشرية موجودة في كل شيء، وفي كل كائن بشري وفي سائر المجتمعات وأنه ينبغي أن نعرف كيف نبتعثها.

وعليه فلا يزال هنالك ما يدعو إلى التشبث بالأمل في خضم اليأس.

ولنزد إلى ما ذكرنا دعوة إلى التحلي من الإرادة بما يقدرنا على مواجهة عظم التحدي. فليس هنالك من سبب أعظم ولا أنبل ولا ألزم من السبب الذي يدعو الإنسانية إلى الجمع بين البقاء والعيش والتأنسن، على الرغم من أننا لا نكاد نلفي بعدُ أحداً يدرك هذا الأمر.



الثقافة والعولمة في القرن الحادي والعشرين

ستتواصل في القرن الحادي والعشرين بعض السيرورات الثقافية المتنافسة والمتعارضة، والمتكاملة أحياناً، والتي يعود ظهورها إلى أواخر القرن العشرين. نريد بقولنا :

1- اتساع مجال العلوم والآداب والفلسفة... على الصعيد الكوكبي.

2- التجنيس والتأحيد والتخفيف التدريجي وضياع التنوعات، ناهيك عن الحوارية (العلاقة التعارضية والتكاملية).

3- انتشار فولكلور كوكبي...

4- انتشار موجات كبيرة عبروطنية والتقاءات واختلاطات وتركيبات جديدة وتنويعات جديدة...

5- العودة إلى الينابيع وتجديد الفرادات.

وإن الاتساع الذي صارت إليه الأنترنيت، بما هي نسق عصبي دماغي ذو طابع كوكبي، والتطور الذي تحقق لوسائل الإعلام سيزيدان في تقوية التوجهات الحالية والتوسيع منها ويزيدان في تأجيج الخلافات بين تنظيم متركز وبيروقراطي ورأسمالي للإنتاج الثقافي من جهة وبين الضرورات الداخلية للأصالة والفرادة

والابتكارية في المنتوج الثقافي؛ أي ضرورة أن يفسح الإنتاج في صلبه مكاناً لخصمه الابتكار. وسيكون هنالك أيضاً تطور متواتر ومتداخل بين سيرورة التأحيد الثقافي وسيرورات التفريد الثقافي ليس على صعيد الآثار الأدبية فحسب، بل وعلى صعيد توظيفها أيضاً.

1 - التوسيع الكوكبي

كانت المجالات الثقافية الكبرى منغلقة عن بعضها البعض وكان الأوروبيون يعتبرون الثقافة «العالمية» هي ما يدخل في عالم الآثار الأدبية الأوروبية، سواء في مجال الأدب (ثيربانطيس وشكسبير وموليير وبلزاك وديكنز، إلخ.)، أو في مجال الشعر والموسيقى. وقد أخذ المجال العالمي الحق في التشكل خلال القرن العشرين. فتوافرت التراجم وصارت الروايات اليابانية والأمريكية اللاتينية والإفريقية تُنشر باللغات الأوروبية الكبرى والروايات الأوروبية تصدر في آسيا وفي الأمريكتين. وأصبحت الموسيقى الغربية تجد لها العازفين في القارات الخمس، وأخذت أوروبا تنفتح على موسيقى الشرق العربي وموسيقى الهند والصين واليابان وأمريكا اللاتينية وإفريقيا.

حقاً إن هذه الثقافة العالمية الجديدة لا تزال محصورة في مجالات ضيقة عند كل أمة، لكن تطورها، الذي يُعتبر سمة مميزة للنصف الثاني من القرن العشرين، سيتواصل خلال القرن الحادي والعشرين. وإذا كانت صيغ التفكير الغربية قد اكتسحت العالم فإن

صيغ التفكير التي تحملها ثقافات أخرى قد أمكن لها أن تقاوم [من أجل البقاء] وصارت تحقق الانتشار في الغرب. وقد سبق للغرب أن ترجم*(Avesta)* و(Upanisads)* في القرن الثامن عشر، وترجم لكونفوشيوس ولاو تسو في القرن التاسع عشر، غير أن رسائل آسيا تظل مجرد موضوعات للدراسات العالمة. وما أمكن لنصوص الفلسفة والتصوف الإسلامية والنصوص الهندية المقدسة وفكر الطاو وفكر البوذية أن تصير إلا في القرن العشرين مصادرَ حية تمتح منها الروح الغربية المسلوبة والمكبلة بعالم الحركية والإنتاجية والفعالية والتسلية، والتي تتوق إلى السلم الداخلي وإلى تناغم الكائن مع ذاته. وبدأ يطالعنا حينها طلب غربي على الشرق إذ، صار التهافت على الأشكال الترويجية والتسويقية من اليوغا ورسائل البوذية.

2 - التأحيد الثقافي وحدوده

لقد كان في ظهور السينما والصحافة واسعة الانتشار والإذاعة والتلفزة خلال القرن العشرين ما أحدث تطوراً في تصنيع الثقافة وتسويقها، بفعل التقسيم التخصصي للعمل وتأحيد المنتوج وتوقيته والبحث عن المردودية وعن الربح. لكن الصناعة الثقافية

---

*- *Avesta* أو الأفيستا هو كتاب الرسول زردشت الذي يعد الكتاب المقدس لدى اتباع الديانة الزردشتية. وكلمة **الأفيستا** باللغات القديمة تعني (الأساس والبناء القوي). والأبستاق مكتوب باللغة الأفستية ذات الصلات القوية باللغة السنسكريتية الهندية القديمة، ويقول المؤرخون أن الأفيستا كتب على 12 000 قطعة من جلود البقر أتلفت أغلبها وبقيت منها 38 000 الف كلمة.

*- *Upanishads* نصوص فلسفية تعتبر المصادر الأولى للديانة الهندية وقد عرف منها أكثر من 200 نص، تعتبر النصوص الإثنى عشر الأولى فيها هي أعظمها أهمية، فهي الأقدم بينها.

لا يمكنها أن تلغي الأصالة والطابع الفردي ولا أن تلغي ما ندعوه موهبة. وهي لا تستطيع أن تلغي هذه العناصر فحسب، بل إنها لفي أمس الحاجة إليها. فالفيلم حتى وإن جرى تصوره بناء على بعض الوصفات الموحدة (كالحبكة الغرامية والنهاية السعيدة *happy end*)، فينبغي أن يكون تتوفر له شخصية [مائزة]، وتكون له أصالته وفرادته. وبتعبير آخر فشتان ما بين إنتاج مسلسل تلفزي أو فيلم [سينمائي] وبين صنع سيارة أو آلة لتنظيف الثياب. وإن مما له دلالة رمزية أن تنادي هوليود على وليم فولكنر، الذي يمكن اعتباره كتاباً قد بلغ ذروة الإبداع وظل منشغلاً بأهوائه وانفعالاته واستيهاماته ووساوسه. وغني عن القول إن عبقرية فولكنر قلما قيض لها من ينقلها إلى الأفلام الهوليودية، لكن أمكن نقل بعضها في معظم الأحيان إلى تلك الأفلام. وعليه فإن في كل ما يتصل بالصناعة الثقافية صراعاً دائماً بين ما هو فردي وأصيل وإبداع وبين الإنتاج الموحد، أو لنقل على سبيل التيسير: بين الإبداع والإنتاج. ومن البديهي أن بعض الآثار الأدبية تراها مسكوكة ومؤحدة وسطحية لكن من الآثار الأدبية ما يأتي بشيء يغير المسكوك إلى نموذج مثالي كما نرى صوراً له في النماذج المثالية في الخرافة. وإن جنساً من قبيل أفلام الغرب الأمريكي الذي أنتج أعمالاً رديئة، كما أنتج أعمالاً معدودة في الروائع، يستمد قوته من الطابع الخرافي والنموذجي المثالي الذي يضفيه على غزو الغرب، إذ يقدمه لا في صورة ملحمة فريدة فحسب، بل وبكونه لحظة تأسيس للقانون – ولم يكن هنالك من قانون – وإقرار النظام وإدخال العدالة حيث يسود الاضطراب

ويسود العنف. وتصور لنا أفلام الساموراي الصراع الملحمي الذي يخوضه فارس وحيد في سبيل تحقيق العدالة ومن أجل الخير في عالم بلا قانون. فيكون بعض المؤلفين الكبار أمثال جون فورد وكوروساوا قد أنجزوا أعمالاً تعد من الروائع. وعليه فإن الصناعة الثقافية يحركها تناقض يدمر فيها بذور الإبداعية ويبتعثها في آن واحد. وقد أصبح الأدب اليوم يوجد بفعل الكتاب المطبوع، الذي يقوم وسيطاً للتكثير المكثف. غير أن الأدب لا يزال يحتفظ بمبدئه الحِرَفي. فإنتاج العمل الأدبي ولو استُعمل فيه الحاسوب يحتفظ بطابع فردي. غير أن الأدب أصبح – بفعل التطور الذي عرفته كبريات دور النشر – يتعرض لضغوط متزايدة من جانب التصنيع وضغوط متزايدة من جانب التسويق.

فقد مر على الكتّاب زمن، طال لبضعة قرون، كانوا فيه يسلمون نصوصهم مخطوطة إلى الناشر، بما يفترض أن يعود الكاتب منهم على مخطوطته بالكثير من التصحيحات. ومن ذلك أن مسودات بروست كانت تحتوي على الكثير من اللصوق التي تطوى على جانبي الصفحات، وإلى أعلى وإلى أسفل، حتى لقد سميت «سجلات صغيرة». وأما في الوقت الحالي فالمؤلف يسلم الناشر قرصاً يحتوي على مؤلفه في صيغته النهائية، فيمنع الناشر المؤلف أن يدخل من تصحيحات على المسودات المطبعية إلا أن يكون المؤلف نفسه من يتحمل تكلفتها. والحال أن العمل الأدبي يتحقق له النضج والاكتمال اعتماداً على مجموعة متلاحقة من التبديلات التي يلحقها الكاتب وتمكن له أن ينفصل عن تلك

المضغة في الصورة التي خرجت من «الأحشاء الذهنية». فإذا جعل ينظر إليها بمسافة متزايدة أمكن له أن يحمل إليها لا رتوشاً خفيفة، كما يفعل الرسام إذ يبتعد عن لوحته، بل ربما جاء عليها أحياناً بتعديلات عميقة ليس منها بد. وهاكم رواية «**البحث عن الزمن الضائع**» لبروست؛ فلم يكن لها أن تكون في الصورة التي هي عليها الآن لو لم يتح لبروست أن يعود فيقلب الطبعة الأولى من تلك الرواية رأساً على عقب.

وتنضاف إلى ما ذكرنا إكراهات الحجم. فالناشرون لا يحبون الكتب الصغيرة جداً ولا الكتب الكبيرة جداً، إلا إذا كانوا يتوقعون لها أن تكون من الكتب الأكثر مبيعاً. فيكون سُمك الكتاب وحجمه يسمحان بالرفع من سعره والرفع بالتالي من الأرباح التي يعود بها. ثم يأتي بعد ذلك مسلسل الانتقاء الأولي لدى كبار الناشرين. فالناشر الكبير الذي يصدر ما بين 15 إلى 20 كتاباً في الشهر الواحد يقوم بانتقاء أولي في الكتب لما يفترض أنها ستلاقى إقبالاً من الجمهور. وبطبيعة الحال فالملحقة الصحافية لا تقول للنقاد: «ستتوصلون بـ 15 كتاباً تعتبر كلها من أفضل المؤلفات». كلا، بل ستقول: «أرجو منكم أن تقرأوا بأناة كتاباً معيناً، وسيعجبكم». ثم إنكم قد لاحظتم أنني أتحدث عن الملحقات الصحافيات بصيغة التأنيث، وأما النقاد فمعظمهم يكونون ذكوراً. ولربما كان في هذا الأمر ضغوط من الجاذبية لا تمت بصلة بطبيعة الحال إلى محتويات تلك المؤلفات. وفي الأخير نسوق أثراً أقصى لهذا الانتقاء الأولي نريد به ظاهرة معروفة على نطاق واسع وتتعلق بالكتب الأكثر

مبيعاً. فالأمر فيها يسري على الكتب كما يسري على الأفلام إذ توجد وصفات لتحويل كتاب من الكتب إلى الكتاب الأكثر مبيعاً إذ أن ثمة جرعة من الدم وجرعة من الاغتصاب والحب والعنف والشهوة والقتل والنزاع والغيرة، لكن لا يكون من المؤكد دائماً أن تنجح الخلطة وتحول ذلك الكتاب إلى واحد من الكتب الأكثر مبيعاً. ومن حسن الحظ أن هذا الأمر لا يخلو من نصيب من صدفة. غير أنها عمليات ما أن تنطلق حتى يصير من المتعذر الصمود لها، وذلك هو ما أدعوه بالتغذية الاسترجاعية الإيجابية؛ أي أن تنامي المبيعات يؤدي إلى تزايد مفرط في البيع، إلخ. إذ تحدث ظواهر من العدوى والانعداء، ما يجعلنا نرى في العالم الأدبي في فرنسا بعض المؤلفات قد طُبع منها 000 1 أو 1500 أو2000 نسخة – فتكون لا تتجاوز عتبة المردودية، فيما مؤلفات أخرى تبلغ مبيعاتها 000 000 2 من النسخ وقد تتعداها. والمجلات تقوم بالدعاية للكتب، كما تقوم بالدعاية لمغنييِّ الروك أو لشتى أنواع المنتجات الصناعية الثقافية. والكتب تصنف في عدد من المكتبات حسب أرقام مبيعاتها وحسب الجمهور المستهدف بالمجلات. ولايبعد أن يقع اختيارنا على أفضل الأرقام – وهي الكتب الأكثر مبيعاً – وربما آثرناها بالقراءة أيضاً.

وثمة إكراه أخير، نريد به الوتيرة السريعة لتعاقب الكتب عند المكتبيين. فكبار الناشرين يسلمون المكتبات ما يصدرون على سبيل البيع، والكتبيون لا يدفعون عن تلك الكتب إذا استلموها ويحق لهم أن يعيدوها إلى الناشرين في حال لم يقيض لها البيع.

ولو اتفق للناشر أن كان قام بانتقاء أولي لكتاب من الكتب بظن أنه سيلاقي النجاح فسيسلم منه المكتبات كميات كبيرة، وسيبذل في الإشهار مجهوداً كبيراً، وسيبذل مثله لدى النقاد للترويج لتلك الكتب. وأما الكتب التي تخرج عن هذا النظام فسيلاقي رواجها لامحالة العنت الشديد. فالكتب التي ينشئها المؤلفون الشبان والكتب التي يضعها المؤلفون عسيرو الفهم، والكتب التي لم تجد بعد هواتها وجمّاعتها، وجملة القول إن الكتب التي لم ترد إليها الإشارة سيكون مآلها الاختفاء من المكتبات في غضون شهرين. لكن هذا النظام وإن يكن شديد الإضرار بالإبداع فإنه لا يقضي عليه، فالناشرون يحتاجون إلى الكتاب الأصيلين، بقدر حاجة المنتجين السينمائيين وأكثر. ثم إن التنوع يعتبر أقوى ترياق يحمي من التأحيد : التنوع في المؤلفين بالنسبة إلى الكتب والتنوع في القنوات بالنسبة إلى الإذاعة والتلفزة.

3 - انتشار فولكلور كوكبي

لقد خلقت وسائل الإعلام خلال القرن العشرين ونشرت وجمعت فولكلوراً عالمياً انطلاقاً من موضوعات أصلية مستمدة من ثقافات مختلفة، تارة بالعودة بها إلى مصادرها وتارة أخرى بالتوفيق بينها. ففي مجال الفن والفكر لا تنحو العولمة الثقافية إلى التجنيس. فالموجات الكبرى العابرة للأقطار يمكنها أن تساعد على التعبير عن الأصالات القومية (انظر الفصل الخامس «ظهور المجتمع العالمي»). كذلك كان الشأن في أوروبا بالنسبة إلى

الكلاسية والأنوار والرومنسية والواقعية والسوريالية وكذلك كان الشأن في أنحاء العالم بالنسبة إلى الموجات الأدبية في فن الرسم وفي الموسيقى التي تنحدر كل واحدة منها من موضع فريد.

4 - التقاءات واختلاطات ثقافية

لا ينبغي أن يغيب عن بالنا أن الاختلاط قد كان على الدوام سبباً في خلق التنوع ومشجعاً على التواصل. فقد كان الإسكندر الأكبر كلما غزا مدينة من مدن آسيا يزوج بضع مئات الفتيات من أهالي تلك المدن من جنوده المقدونيين، فإذا الحواضر التي مر بها أو أنشأها قد صارت أرحاماً أخرجت لنا الحضارات الهلينية الزاهرة والينابيع التي خرج منها الفن المختلط الإغريقي البودي. وقد عرفت الحضارة الرومانية نفسها الاختلاط في وقت مبكر؛ فهي قد استوعبت الميراث اليوناني كله، وعرفت كيف تُدخل في معابدها عدداً كبيراً من الآلهة الأجنبية وكيف تدخل في ترابها أقواماً من الهمج الذين صاروا روماناً بالحق مع احتفاظهم بهوياتهم العرقية.

إن الإبداع الفني يتغذى من ضروب التأثير والتأثر وألوان التلاقي. ومن ذلك أن تقاليد معينة تبدو لنا اليوم أصيلة لايداخلها شيء، من قبيل الفلامنكو، وهي تعتبر كشأن الشعب الأندلسي نفسه نتاجاً لإسهامات عربية ويهودية وإسبانية جرى تحويلها بفضل شعب الغجر وبفضل عبقريته المريرة. فيمكن أن نرى في الفلامنكو ونسمع الخصوبة والأخطار التي ينطوي عليها ذلك الشرط المزدوج الحفاظ – على الأصل – والانفتاح على

الأجنبي. فأما من ناحية المحافظة فقد شهدنا بفضل ميول *aficion* بعض الهواة الفرنسيين كيف صار يُرجع إلى مصادر كانتي خاندو بالاستمداد والدراسة بعد أن كانت تردت إلى انحطاط كبير؛ وصرنا نسمع من جديد بعض التسجيلات القديمة قد ابتُعثت من جديد في بعض المختصرات (*recopilaciones*)، وصرنا نرى بعض المغنين من بعد ما طواهم النسيان وصاروا إلى انحطاط قد عادوا ليتبوأوا مقام الأساتذة فهم يكونون اليوم أجيالاً جديدة من المغنين على احترام التقاليد والنهل بقوة من المصادر الأصيلة. وأما من ناحية الانفتاح فقد رأينا في بادئ الأمر انحطاطاً تمثل في خليط إسباني ذي مظهر إشبيلي غامض، ثم رأينا إدماجاً للمصادر [المتعددة] في موسيقى ألبينيز وموسيقى دي فالا، ورأينا في آخر الأمر صنوفاً من الاختلاطات الأخاذة والحديثة مع أنغام وإيقاعات مستجلبة من أماكن أخرى كما هو الشأن في الجاز (كامتزاج باكو دي لوسيا وجون ماك لوكلين)، ومع الروك (في أفضل ما في الجيبسي كينغ). لقد كان الجاز في بادئ الأمر شكلاً موسيقياً هجيناً من إفريقيا وأمريكا، وكان نتاجاً فريداً لأورليانز الجديدة، فانتشر حتى عم الولايات المتحدة الأمريكية، ومر فيها بتحولات كثيرة، من غير أن تؤدي الأساليب الجديدة فيه إلى القضاء على الأساليب السابقة. ثم أصبح موسيقى زنجية / بيضاء، فأخذ البيض يستمعون إليها ويرقصون على أنغامها ثم شرعوا يعزفونها. وأخذ الجاز بمختلف الأشكالة في الانتشار في سائر أنحاء العالم، وأما الأسلوب العتيق أورليانز الجديد *New*

Orleans، الذي بدا كأنما تُرك جانباً، فقد ابتُعث من جديد في أقباء سان جيرمان دي بري في باريس، ثم عاد إلى الولايات المتحدة وعاد إلى الاستقرار في أورليانز الجديدة. ثم امتزج بالريتم أند بلوز *rythm and blues*، فكان ظهور الروك في المجال الأبيض من الولايات المتحدة الأمريكية، ثم عرف الانتشار بعد ذلك في سائر أنحاء العالم، وأخذ في التواؤم مع جميع اللغات فهو يتقمص في كل بلد هويته القومية. واليوم ترى الناس في بيكين وفي كانتون وفي طوكيو وفي باريس وفي موسكو يرقصون ويتواصلون من خلال الروك، وترى الشبيبة من سائر البلدان تحلق بالإيقاع الواحد فوق الكوكب الواحد. ثم إن الانتشار العالمي الذي قيض للروك قد نتجت عنه في معظم أنحاء المعمور مجموعة من الأشكال الموسيقية الأصيلة المختلطة، من قبيل الراي، ثم رأيناه في آخر الأمر كيف تبلور في الروك المزيج *rock-fusion*، وهو ضرب من المزيج الإيقاعي تتداخل فيه الثقافات الموسيقية من العالم أجمع. وعليه فالثقافات الموسيقية من سائر أنحاء العالم أجمع تتخاصب في ما بينها، وقد تكون نتائج ذلك التخاصب سيئة في بعض الأحيان، لكنها أكثر ما تكون جيدة، فهي تحصِّن هذه الثقافات من الضياع، غير أنك لاتزال ترى هنالك من لايزال لايدرك أنها تشكل أطفالاً كوكبيين.

وأما المجانسة فهي متأتية من «المكدنة» المعممة، لكنها لاتأتي من اللقاءات ومن الاختلاطات. فكل اختلاط يخلق التنوع وانظروا إلى الأوراسيات الجميلات وإلى البرازيليات الجميلات. كما وينبغي أن

يُترك للأناسي وللثقافات أن يمضوا وتمضي نحو الاختلاط المعمم والمتنوع والذي يصير بدوره عامل استكثار وتنويع.

إن الموانع الحاملة للَّعنة، والتي كانت في عصر الشتات البشري تشكل الدفاعات المناعية للثقافات العتيقة والديانات الدوغمائية، قد صارت حواجز تعيق من التواصل ومن الفهم ومن الابتكار في العصر الكوكبي. ولقد اعتُبر «المازجون» بين الأساليب في بادئ الأمر مُلبسين، وأُقصي ذوو الأعراق والأديان المختلطة من مجموعاتهم الأصلية وكأنهم لقطاء. فهم ضحايا وشهداء لسيرورة رائدة من الفهم.

5 – تدفقات جديدة

بموازاة لكل العمليات التي ذكرناها، ورداً على المخاطر الناجمة عن فقدان الهوية الأصيلة، بدأنا نرى الناس في كل مكان يعودون إلى النهل من الينابيع، وهو أمر نلحظه بصورة خاصة في الموسيقى. وكما أسلفنا القول ففي الوقت الذي كانت الفلامنغو في سبيلها إلى الاندثار صرنا نرى كيف قيض لها أن تُبتعث من جديد على أيدي بعض الأجيال الفتية، التي سارت على مثال كبار عازفي [الفلامنكو]. وقد ساعدت السوق الدولية للأسطوانات والفرجة على هذا الابتعاث، فتزايدت له أعداد هواة الفلامنكو في أرجاء العالم. وبذلك يكون الفلامنكو مثالاً على العودة إلى الينابيع ومثالاً على الامتزاج، وهما عمليتان متعارضتان في ظاهرهما لكن متكاملتان في الواقع. ولقد باتت الأجيال الفتية في كل مكان سواء

في أوروبا (البلدان السلتية والباسك)، أو في أمريكا أو في آسيا، تجتهد لحماية أشكال الموسيقى والأدوات والأنغام التقليدية.

وبذلك تتحقق للثقافات سبل المقاومة والدفاع عن نفسها. لكن يجدر ههنا بالتوضيح أن الثقافة الغنية تكون ثقافة تصون وتدمج وتكون ثقافة منفتحة ومنغلقة على حد سواء، وذلك خلافاً للتصور القائل إن كل ثقافة تكتفي بذاتها ولا تحتاج إلى سواها. وقد أصاب ماروياما في ملاحظته التي قال فيها إن كل ثقافة تحتوي على خلل في الوظيفية *disfonctionnel* (أي أن عملها يكون معيباً) وعلى اعوجاج في الوظيفة *misfonctionnel* (أي أن عملها يكون في الاتجاه الخاطئ)، وعلى نقص في الوظيفة *sous-fonctionnel* (أي أن عملها يكون في أدنى المستويات)، وعلى مضار في الوظيفة *toxifonctionnel* (أي أن عملها تنجم عنه أضرار). والثقافات لاتكون في حد ذاتها كاملة أو خالية من العيوب مثلما أننا نحن أنفسنا غير كاملين أو منزهين عن العيوب. فجميع الثقافات، كشأن ثقافتنا هي خليط من الخرافات والتخيلات والتثبيتات والمعارف المتراكمة التي لم يطلها النقد والمغالطات الفادحة والحقائق المكينة. بيد أن هذا الاختلاط لا يكون بالإمكان تمييزه للوهلة الأولى، فينبغي أن نتنبه فلا نصنف في باب الخرافة معارف ضاربة في القدم - من قبيل صيغ إعداد الذرة في المكسيك التي لطالما درج الإناسيون على ردها إلى بعض المعتقدات السحرية، إلى أن اكتشفوا أن تلك الأساليب تسمح للجسم بامتصاص الليزين، وهي مادة مغذية في الذرة التي ظلت هي غذاؤه الوحيد من قديم العصور. وكذلك

ستكون المفارقة التي ستطبع القرن الحادي والعشرين؛ أي أنه ينبغي أن نحافظ على الثقافات ونفتحها على غيرها في وقت واحد. وليس هذا الأمر في المحصل بالجديد في شيء؛ ففي أصل الثقافات جميعاً بما فيها الثقافات التي تبدو أشد تفرداً، يوجد لقاء واشتراك وتوفيق واختلاط. وجميع الثقافات تنطوي على إمكانية لاستيعاب ما يكون في البداية غريباً عنها، أو على الأقل إلى عتبة معينة، تتفاوت حسب حيويتها، وإذا تجاوزتها فإما أن تستوعبها ثقافات أخرى أو تتعرض للتفتت والاضمحلال.

وعليه فلابد من الوفاء بمقتضى معقد لا يمكننا أن نلغي تناقضه الداخلي - لكن هل يمكن التجاوز عن هذا التناقض، وهل هو غير لازم لحياة الثقافات؟ - وهو أن نصون التفردات الثقافية وندفع في الوقت نفسه نحو الاختلاطات والامتزاجات؛ ينبغي لنا أن نربط بين حفظ الهويات ونشر عالمية مختلطة وعالمية تنحو إلى تقويض تلك الهويات. فكيف السبيل إلى أن ندمج من غير أن نفكك ونقوض؟ والمشكلة تطرح في صورة مأساوية على صعيد الثقافات العتيقة، ومثالها ثقافة الإسكيمو؛ فينبغي أن نعرف كيف نجعلها تفيد من امتيازات حضارتنا - من صحة وتقنية ورفاه، إلخ. -، لكن ينبغي أن نعرف كيف نساعدها على صون أسرار طبها وشامانيتها وخبرتها في الصيد ومعارفها في الطبيعة، إلخ. إننا بحاجة إلى رُسُل كمثل جون مالوري، لا يكونون مبشرين دينيين أو لائكيين قطعاً فيُسيئوا إليهم بمعتقداتهم وعاداتهم.

خلاصة

إن من البديهي أن تطور العولمة الثقافية شيء لا ينفصل عن التطور العالمي لشبكات وسائل الاتصال ونشر صيغ الإنتاج على الصعيد العالمي (البكرات والأقراص المدمجة والفيديوهات)، وأن الأنترنيت ووسائل الاتصال ستسرع وتوسع من نطاق العمليات المتنوعة والمتنافسة والمتعارضة (أعني المعقدة) التي سلف لنا ذكرها. ولا نعتقد أن الكتاب سيزول ويندثر، شأنه شأن السينما وحتى ليذهب بنا الاعتقاد في أن العودة ستكون إليهما معاً؛ الأول في ما يتيح من تأمل ووحدة وإعادة للقراءة، والثاني في التواصل الذي يتيحه داخل القاعات المعتمة. ونعتقد كذلك أنه على الرغم من أوجه التقدم الهائلة التي تحققت لعمليات التأحيد ومتطلبات الربح فإن تلك العمليات ستتعرض للخلخلة بفعل عمليات التنويع واحتياجات التفريد. إن الأمر يقتضينا أن نذهب صوب مجتمع عالمي يقوم على عبقرية التنوع لا على غياب عبقرية التجانس، وهو ما يقودنا إلى مطلب مزدوج ينطوي على نقيضه، لكن لا يمكنه أن يزدهر إلا في التناقض : - المحافظة على الوحدة الكوكبية ونشرها وزرعها وتطويرها في كل مكان - والمحافظة على التنوع ونشره وغرسه وتطويره في كل مكان. إن الإنسانية واحدة ومتعددة معاً. وإن ثراءها في تنوع الثقافات، لكن يمكننا، وينبغي لنا، أن نصل الأناسي بعضهم ببعض، في الهوية الكوكبية الواحدة. فمتى صرنا حقاً مواطنين عالميين نتقاسم ثقافة واحدة بمئات الورود صرنا متنبهين ومحترمين للمواريث الثقافية.



المجتمع-العالم
ضد الإرهاب-العالم



ليكن مبتدئي بسؤال اصطلاحي

الإرهاب. فمفهوم الإرهاب يصح على [المنظمة] الجهادية العالمية «القاعدة»، التي يقوم نشاطها على الاعتداء والقتل الجماعي للساكنة المدنية، لكنه يصير شديد الاختزال عندما يُجعل للأشكال العنيفة من المقاومات الوطنية المحرومة من الوسائل الديمقراطية للتعبير عن نفسها. فهذا المصطلح الذي أطلقه المقاومون في أوروبا للنازيين قد صار إلى اختزال وتضييق عندما أطلقه بوتين على المقاومة الشيشانية التي تشتمل بطبيعة الحال على فرع إرهابي، لكن لا يمكن اختزالها فيه. إن عنف الدولة الذي ينزل بشعب، كما يستهدف أولئك الذين يقاومونه، يعتبر في حد ذاته عنفاً إرهابياً.

يشكل [تنظيم] القاعدة طوراً جديداً في الإرهاب. وكذلك مكنت العولمة التقنية والاقتصادية من وجود العولمة الإرهابية، إذ تحولت في نطاق هذه العولمة وبواسطتها إلى تهديد عالمي.

إسلاموي. إن لفظ «إسلاموي» زاخر بالمغالطات. فهو يدل من الناحية المبدئية على كل معتقِد بالإسلام، ثم صار عند كثير من الغربيين مرادفاً للمتعصب. ولهذا اللفظ قرابة شديدة إلى لفظ

«إسلامي» (وهو مفهوم يدل على ما يتصل بالإسلام) ولذلك فإن من شأنه أن يلحق به نصيباً من معنى التعصب وس معنى الإرهاب. والواقع أن الإسلاموية إذ تتضمن العودة إلى القرآن وإلى تطبيق الشريعة فهي تتضمن رفضاً للحضارة الغربية، بما فيها الليبرالية والديمقراطية. لكنها لا تستتبع من نفسها حرباً مقدسة أو تستتبع إرهاباً، مع أن في الإمكان أن ننزلق من الإسلاموية إلى الجهاد. وشبيهة بهذه العدوى تصيب مصطلح «الأصولي» (وما هو بالعدائي في حد ذاته). وأما التنظيم الدولي الجهادي «القاعدة» فهو انحراف ديني موهوم، لا يمكن أن نختزل فيه الإسلام. بيد أن لفظ «إسلامي»، على نحو ما شاع استعماله في وسائل الإعلام الغربية، يختزل كل إسلامي في إسلاموي وكل إسلاموي في إرهابي محتمل، بما يحول دون رؤية الوجه المركب للإسلام.

إن كل مغالطة في الفكر تقود إلى مغالطات في الفعل من شأنها أن تزيد من مفاقمة المخاطر التي نروم محاربتها. فينبغي أن نفكر الإسلام، كما ينبغي أن نفكر الولايات المتحدة ونفكر إسرائيل ونفكر العولمة نفسها في تعقيداتها، فنقر بالتناقضات التي ينطوي عليها كل واحد من هذه المصطلحات.

الوجه المزدوج للولايات المتحدة

تعتبر الولايات المتحدة أعرق ديمقراطية في العالم، وهي تكوِّن مجتمعاً مفتوحاً، بما يجعلها في الوقت الحاضر عرضة للأعطاب. فلقد أنقذت أوروبا الغربية من النازية، وحمتها من الاتحاد السوفييتي

في وقت كان لا يزال أبعد من أن يكون نمراً من ورق. وهبت لإنقاذ المسلمين في البوسنة وفي كوسوفو. ولم تكن للولايات المتحدة يد في الحرب الطاحنة التي دارت رحاها بين العراق وإيران، ولا كانت لها يد في الأهوال التي عصفت بالجزائر، ولا في سائر الصراعات التي نشبت بين الدول العربية. وثقافة الولايات المتحدة لا تختزَل في الماك دو ولا في الكوكا كولا بل هي ثقافة قد أبانت عن قدرة خلاقة مبتكرة في مجال العلم والأدب والسينما والجاز والروك. وأمريكا تسير نحو أن تكون أوروبية، بقدر ما تسير أوروبا نحو أن تكون أمريكية.

لكن الولايات المتحدة تشكل قوة إمبريالية تهمين بالتسليح وبالاقتصاد. ولا تمنعها ديمقراطيتها بأي حال أن تقدم الدعم للديكتاتوريات متى ما دعتها إليه المصلحة. كما وأن نزعتها الإنسانية تشوبها بقعة عمياء لاإنسانية؛ فلقد قامت بتفجيرات مهولة للمدن الألمانية، ثم اقترفت تينك المذبحتين في هيروشيما وناغازاكي. وتسفر لنا التفجيرات المتواصلة التي توقعها الولايات المتحدة على أفغانستان عن إرهاب آخر يطال الساكنة المدنية، فتسقط لاضحية القنابل أو الصواريخ الملقاة عليها من أقصى الأعالي ومن أنأى المسافات، بل وتقع فريسة كذلك للخوف والمجاعة، حتى لا تجد منجاة منهما إلا في المهاجرة. والولايات المتحدة اهتزت للمصيبة التي حاقت بـ 6 000 من ضحايا مركز التجارة العالمية غير أنها لا تهتم للكوارث العظمى يلحقها قصفها بالساكنة الأفغانية. والولايات المتحدة غير مدركة للتناقض الكامن في الرعب الذي يحدثه قصفها الموجه على الإرهاب.

لقد كان البرجان العملاقان بالغي الدلالة الواقعية وبالغي الدلالة الرمزية على حد سواء؛ فقد كانا رمزاً للثراء ورمزاً للقوة الأمريكية ورمزاً لرأسماليتها ورمزاً لديمقراطيتها ورمزاً لانفتاحها (بعد أن أصبح تمثال الحرية رمزاً للعبودية). فخلف انهيارهما ثقباً أسود يتعذر رتقه في رؤيتنا ليس لمانهاتن وحدها، بل وفي رؤيتنا للعالم أيضاً. فمن الناس من يرون في ذلك الانهيار إهانة لحقت بالإمبريالية الأمريكية وبالرأسمالية، ومن الناس من لايزال ينشغل لذلك الأمر، إذ يرى فيه ثلماً انفغر في الديمقراطية وفي الحضارة. وإن هاتين الحقيقتين المتعارضتين لمتكاملتان.

عولمة النزعة الأمريكية

وعولمة النزعة المعادية لأمريكا

حقاً إن الولايات المتحدة تحرك [لدى الأناسي في] العالم البائس مطامح، من جملتها مطمح الهجرة إليها، كما تثير لديهم ما لاعد له من الرغاب للدخول في حضارتها. والولايات المتحدة تلقى الاحترام والطاعة من أتباعها، كما أن الشعور بالتضامن الغربي [وإياها] يظل قوياً في أوروبا. لكن إذا نحن أنعمنا النظر في ثراء الولايات المتحدة ورخائها، في إطار من الفاقة والعوز، بعثنا على شعور عارم بالاستياء. فالهيمنة تخلق ما لاحصر له من أوجه المهانة ومركباً من النقص التقني (في عالم الجنوب)، ومركباً من التفوق الثقافي (في أوروبا) يوغران عليها الصدور. فنقص التنمية الذي عانت منه أمم كثيرة يُعزى إلى الإفراط في التنمية الاقتصادية الذي

تنعم به الولايات المتحدة. والنقص الشديد في الطعام والدواء الذي تتخبط فيه جحافل كبيرة من السكان العزل في مواجهة الأوبئة والسيدا يغذي مشاعر العداء للساكنة التي تنعم بالرفاهية الزائدة والعلاج الزائد في الغرب وفي الولايات المتحدة بوجه خاص. ففي البلدان التي عرفت في الماضي حضارات مجيدة والتي تشعر اليوم بنفسها أنها انحطت وباتت فريسة للتهديدات يلاقي العالم الأمريكي نفوراً وكراهية وعداء.

فالعواقب الوخيمة لتحرير السوق العالمية وتفاحش التفاوتات وشتى أنواع الأزمات الاقتصادية تزيد من تأجيج مشاعر العداء والكراهية.

حقاً إن النموذج الاشتراكي «الواقعي» قد انهار في الأذهان التي كانت تسودها، أو لا تزال تسودها ترجمات الماركسية اللينينية (من غير أن تدرك في يوم من الأيام مبلغ الفساد الذي انطوى عليه هذا النموذج)، بيد أن تلك الأذهان لا تزال على قناعة بأن الرأسمالية والإمبريالية الأمريكيتين هما الشر المطلق. فلا تزال هذه الأذهان على تصورها الشيطاني لأمريكا باعتبارها بؤرة الرأسمالية والإمبريالية، وغاب عنها أن الشيوعية السوفييتية قد كانت أسوأ من الرأسمالية، ولم تتفطن إلى محاسن الديمقراطية وعيوب الكليانية، ولا وعت بأن الإمبريالية الأمريكية أقل شراسة من الإمبرياليات السالفة عليها، خاصة منها السوفييتية. وبذا نرى أن جماع مشاعر العداوة والبغضاء التي تطالعنا من شتى أنحاء

المعمور في حق الولايات المتحدة تستثير عليها كراهية عجيبة، وقد تستثير أحياناً كراهية استيهامية، إذ يتهمها مبغضوها بأنها السبب في جميع الشرور التي ابتُليت بها الكرة الأرضية. فلما كانت الولايات المتحدة هي سيدة العالم (وما هي بالسيادة الكاملة) فكذلك صارت تعتبر المسؤولة عن الشرور التي تعتور هذا العالم (وما هي بالمسؤولية الكاملة).

ولذلك فالولايات المتحدة تعتبر هي الشر الأعظم والسبب في الشر الذي ابتلي به الغرب في الوقت الراهن؛ ذلك الغرب الذي اندفع هاجماً على الكرة الأرضية ابتداء من القرن السادس عشر وغزاها واستعمرها واستنزف خيراتها وأباد ساكنات عن بكرة أبيها.

لكن من الضروري ههنا كذلك أن نجمع بين حقيقتين متعارضتين. فإذا صحَّ أن هيمنة الغرب قد كانت هي الأسوأ في تاريخ البشرية خلال ديمومتها وانتشارها على كوكب الأرض، فينبغي القول كذلك إن جميع المكونات الداخلة في تحرير المستعبدين قد نشأت وتطورت في حضن الغرب، وقد مكنت للمستعمَرين سبل الانعتاق، وقت أن اعتنقت القيم الإنسانوية الغربية الأوروبية؛ من حقوق الإنسان وحق الشعوب وحق الأمة والديمقراطية وحقوق المرأة. بل يمكننا القول إن التأخر الذي يعرفه قسم كبير من العالم عن الأخذ بأسباب الديمقراطية وحقوق الإنسان وحقوق المرأة يعتبر من أسباب الحالة الخطرة التي تردى إليها العالم الحالي.

الإسلام

لا يمكن اختزال الإسلام هو الآخر في رؤية أحادية. فلقد علمنا تاريخ الماضي بوضوح أن التسامح الديني كان يأتي جانب الإسلام في حق المسيحيين وفي حق اليهود، سواء في الأندلس أو في الإمبراطورية العثمانية. ولقد أنجب لنا الإسلام أعظم حضارة عرفها العالم زمن الخلافة في بغداد. والحال أن الحنين إلى الماضي المجيد من صلب حاضر بائس تعيس، يرزح تحت ثقل الديكتاتوريات الفاسدة البوليسية والعسكرية، بعد الفشل الذي منيت به النزعة التنموية، وفشل الاشتراكية، والشيوعية وغياب الأمل في التقدم وفي مستقبل ذي صبغة غربية، هذه العوامل مجتمعة تبعث على العودة إلى الجذور الدينية للهوية. وزيادة على ذلك فإن الحرمان الشديد يتفاقم ليتحول إلى إذلال فهياج إزاء المهانة اليومية والقمع الذي يتكبدها الفلسطينيون، والظلم الذي يتجرعونه (الكيل بمكيالين بين إسرائيل والفلسطينيين)، وكلها أمور تحدث في سياق عجز من الدول العربية تابعة وغير تابعة. إن المساندة اللامشروطة التي توفرها الولايات المتحدة لإسرائيل تجعل إسرائيل أداة لأمريكا وتجعل أمريكا أداة في يد إسرائيل، وفي أيدي الإسرائيليين بوجه أعم. هذا التطابق الذي زاد تفاحشاً بفعل الشارونية بات شيئاً محتوماً على أمريكا كما على إسرائيل. فإذا الحرمان والعداء والحنين إلى حضارة عظيمة سالفة قد أصبحت في سياق الوضعية الحالية، تعيد ابتعاث الحلم بالأمة، تلك الجماعة الإسلامية العابرة للقوميات، وتجعل المليار من المسلمين مشتلاً عالمياً يمكن أن يعاد فيه

تجنيد المجاهدين. إن الشباب [المسلم] أجمع، سواء منه الذي في بلدان المغرب أو في باكستان، يعتبر بن لادن إنساناً خارقاً بلغ من شدة الإيمان إلى أن يدمر برجي بابل التي كانت في الوقت نفسه هي سدوم وعمورية؛ إنه جاء يبشر بالخلاص الإسلامي وبعث الأمة وعودة الخلافة. فلقد ولدت مسحية جديدة لا يمكننا بعد أن نتكهن بالتطور الذي ستصير إليه. لكن في الاتجاه المعاكس هنالك مطامح متعددة إلى أفضل ما في الحضارة الغربية المعاصرة؛ أعني الاستقلال الفردي والحريات السياسية وحق النقد وتحرير المرأة. إن المعركة الحقيقية تدور رحاها في أذهان عدد كبير من المسلمين الذين يرغب الكثير منهم في صون هويتهم، والاحترام لتقاليدهم ويرغبون في الوقت نفسه في الوصول إلى الإمكانيات والحقوق التي ينعم بها الغربيون. وسيعود النصر إلى أولئك الذين سيفلحون في الجمع بين الهوية الثقافية والمواطنة الكوكبية.

إسرائيل

أمة ملجأ، محررة لليهود لكن مغتصبة للفلسطينيين، هددها جيرانها العرب منذ ميلادها بالاستئصال، لكنها أصبحت أقوى منهم من الناحية العسكرية، ولا تزال غير مطمئنة على بقائها، فهي تزيد تمادياً في اضطهاد الشعب الفلسطيني. إن إسرائيل تسعى في ربط وجودها بهيمنة تزيد في تأجيج الكراهية العربية؛ فلا تزال تتردد في الانخراط في السبيل الاحتمالية التي ستمكن لها الاندماج في الشرق الأوسط، وذلك بالاعتراف بالدولة الفلسطينية ضمن

حدودها لسنة 1967. ومما نذكر في هذا الصدد أننا رأينا خلال الانتفاضة الأخيرة ذرية اليهود الذين تعرضوا طوال 2000 سنة لصنوف المهانة والاضطهاد قد أصبحوا هم المضطهِدون القادرون على إنزال الفلسطينيين في المعازل وممارسة المسؤولية الجماعية على الأسر وعلى المدنيين، وباختصار لقد أصبحوا قادرين على أن ينزلوا بالفلسطينيين من المهانة والإذلال مثلما كان ينزل منهما بأسلافهم. ولقدأصبحت القضية الإسرائيلية الفلسطينية هي السرطان، الذي لم يقتصر على أن أصاب جسد الشرق الأوسط وحده، بل امتد إلى علاقات الإسلام بالغرب وباتت عقابيله في استشراء موتور لتعم كوكبنا الأرضي. وبات التدخل الدولي لضمان ميلاد الدولة الفلسطينية وضمان وجودها وحياتها من باب الضرورة الحيوية على هذا الكوكب. وإن من شأن ذلك التدخل كذلك أن تكون فيه حماية لمستقبل إسرائيل؛ إذ يوقف السياسة الانتحارية على المدى البعيد ويوفر الضمانات الأمنية الضرورية لهذه الأمة.

العولمة

ظهور مجتمع عالمي جنيني

بدأت تطالعنا خلال العشرية الأخيرة بوادر مجتمع عالمي فهو مجتمع له شبكته من وسائل الاتصال، التي صارت لها فروع في كل مكان، وله اقتصاده الفعلي المعولم، لكنه يفتقر إلى أنواع الرقابات التي تتوفر للمجتمع المنظم، وله معدله من الجريمة (المافيات، ومنها

التي تتاجر في المخدرات وفي البغاء) وقد صار له في الوقت الحالي إرهابه أيضاً.

لكن هذا المجتمع لا يمتلك تنظيماً ولا يمتلك قانوناً أو يمتلك هيأة تتولى شؤون السلطة وتقنين الاقتصاد والسياسة والأمن والمجال الحيوي. ولا يزال يفتقر إلى وعي مشترك بمواطنة كوكبية.

وتشكل عولمة الإرهاب طوراً من تحقق المجتمع العالمي، لأن «القاعدة» ليس لها مركز ولا تراب وطني، وهي تجهل بالحدود فتتعدى على حدود الدول، وتمتد بفروعها على أنحاء المعمور. ولها قدرة مالية وقوة عسكرية عابرة للأقطار. فهي تفوق الدولة بأن لها مركزاً خفياً ومتحركاً ومتنقلاً. وتنظيمها يستعمل جميع الشبكات التي كانت موجودة في صلب المجتمع العالمي. وعولمتها عولمة كاملة. وتخوض حرباً أهلية داخل المجتمع العالمي.

إن هذه الآلة الصانعة للرعب المتجاوز للحدود، والضارب بفروعه في أنحاء العالم، تتغذى على كثير من أشكال الحرمان واليأس العارمين، ويحركها إيمان واهم، قد كشفت فجأة عن قدرة تخريبية؛ كما نراها في العنف القاتل لهمجية متعصبة توظف أحدث المبتكرات وأكثرها تطوراً مما أنتجت الهمجية التقنية.

إن محاربة القاعدة لا تدخل في حرب (تقوم في العادة بين الأمم)، بل هي تدخل في إدارة *police* وفي سياسة. والحال أن قصف أفغانستان قد حول الحرب التي كانت مجازية (ماركس باجيس) إلى حرب حقيقية، وذلك على حساب عمل متوائم لمحاربة عدو له

فروع في سائر أنحاء كوكب الأرض؛ فهي المحاربة التي تقتضي القيام بعمل على صعيد الكوكب مشترك في غاية التعقيد.

التفاحش

إن الدينامية الناجمة عن [أحداث] 11 شتنبر، والتي تركت لنفسها، تزيد في المخاطر كثرة وتفاحشاً. فأما الخطر الاقتصادي فيتمثل في استقلال السوق العالمية، الذي يشير على هشاشة زاد منها غياب نظام حقيقي للتقنين وأزمة معممة أصبحت بادية للعيان، ستكون هي البيئة التي تعيش فيها الديكتاتوريات الجديدة بَلْهَ النزعات الكليانية، كما حدث في أزمة 1929. ويمكن القول بوجه أعم إن التواقف القائم بين سائر العناصر المكونة للعصر الكوكبي يضعف من مصير كوكب الأرض نفسه.

وأما الخطر التاريخي فيتمثل في التهديد الدائم ومتعدد الأشكال الواقع على الولايات المتحدة، واشتداد نزعة العداء لأمريكا، واشتداد التدخل العسكري الأمريكي، فلا يمكن لهذه العوامل إلا أن تشجع على زيادة الهيجانات الهستيرية التي تؤجج النزعات المانوية والشيطانية المتبادلة والسرطان الإسرائيلي الفلسطيني يسير إلى تفاقم؛ وستكون انتقالاته مما يتعذر فيها العلاج ما لم يوضع حل في أسرع وقت لهذا الصراع . فموجة العداء لإسرائيل، والتي صارت عداء للسامية وعداء لأمريكا، تحرك رؤى كانت لأوروبا في القرون الوسطى عن اليهود تصورهم في صورة محتسين لدم الأطفال وملوثين للأفكار والأجساد (ناشرين للسيدا) وعاملين

بالخداع للهيمنة على العالم. إن سلوك شارون ليس سيئاً فحسب، بل هو يقود إسرائيل إلى الانتحار الوشيك، وإن كان هذا الانتحار ترافقه شهب اصطناعية من مئتين من الرؤوس النووية الإسرائيلية التي ستدمر القسم الأكبر من الإنسانية العربية.

إن عجز الولايات المتحدة والأمم الاوروبية والأمم المتحدة عن القيام بتدخل عسكري دولي بين المتقاتلين، وعجزها عن فرض تدخل عسكري دولي بينهم، بالفصل بين الترابين بموجب حدود 1967، سيؤدي إلى كارثة تاريخية لم تمر بالبشرية مثيلة لها في العِظَم.

ويمكننا أن نتوقع للموجة التي أحدثتها صدمة بن لادن أن تؤدي إلى تفكك متسلسل للأنظمة الإسلامية القائمة، لا لتحل محلها الديمقراطية، بل ليحل محلها التعصب الديني. وفي الأخير فإن الخطر النووي والبكتيري والكيماوي الذي يحوم كأنه السُّكاك فوق كوكب الأرض قد أصبح بادياً للعيان وحاضراً ولحوحاً.

ولقد شهد القرن العشرون تحالفاً بين همجيتين، واحدة تقوم على التخريب والقتل الآتيين من أغوار التاريخ السحيق والأخرى من صلب حضارتنا، آتية من التحكم المجهول والبارد الذي صار للتقنية، ومن فكر يجهل بكل ما لا يدخل في الحساب أو يدخل في الربح. وتمثل النزعة البنلادنية تحالفاً بين الهمجيتين.

وعليه فلا ينبغي أن نخفي عن أنفسنا أن ثمة همجية في قلب حضارتنا، وأن هذه الحضارة تخلق قوى للفساد والموت، وأن تطورنا العلمي والتقني المفرط يقابله تخلفٌ عقلي وأخلاقي.

بيد أن هذه الحضارة لا تزال تمتلك فضيلتين فريدتين : اللائكية والديمقراطية، وإن تكن هذه الديمقراطية قد أصابها الهزال.

في مخاطرة الحظ

تتأرجح الولايات المتحدة، ويتأرجح الغرب بصفة عامة، بين سبيلين اثنتين؛ سبيل الجنون، ذات الخاتمة الكارثية، وسبيل الحكمة تلك السبيل العسيرة والمحفوفة بالريبة والشكوك. إن سبيل الجنون هي سبيل الحروب الصليبية والاختراعات الجهنمية والمانوية العمياء (لأن الشر ينطوي على شيء من الخير كما أن الخير ينطوي على شيء من الشر)، وهي سبيل إذ تفاقم من هستريا الحرب تصير سبيلاً للقتل الجماعي من الجانبين المتعاديين.

وفي المقابل فإن الوعي بالمخاطر ربما كان فيه دفعٌ للمضي في سبيل الحكمة.

وتتضمن سبيل الحكمة الوعي الأساسي بالتكافل الداخلي بين بني البشر وبين الجماعة الإنسانية المشتركة في المصير الكوكبي.

فلا ينبغي للولايات المتحدة أن تقتصر على رفع شعار «نحن جميعاً أمريكيون»، و«نحن جميعاً أطفال ومواطنون للأرض» وينبغي لها أن ترفع كذلك شعار «نحن لسنا أمريكيين فقط».

وتتضمن الوعي بأن الحضارات، كما يذكرنا بول فاليري بعد الحرب العالمية الأولى، ليست وحدها الفانية، بل وأن البشرية الكوكبية فانية أيضاً.

وتتضمن الوعيَ بأن البديل الوحيد اليوم للكراهية والحقد هو الديمقراطية. وتتضمن الإقرار بهذا المبدإ الأخلاقي البسيط : لن يتحقق لنا عالم نبيل بوسائل دنيئة.

وتتضمن الوعي بأن بناء مجتمع عالمي قد أصبح ضرورة حيوية، وحده المجتمع العالم يمكن أن يكون رداً على الإرهاب العالمي. وهذا يقتضي تجاوز الإديولوجيا الاقتصادوية التي تجعل للسوق العالمية مهمة تنظيم المجتمع العالمي، فيما المجتمع العالمي هو الذي ينبغي أن يكون المنظم للسوق العالمية.

إن النوع الجديد الذي صارت إليه الحروب يتطلب نوعاً جديداً من السلم؛ يكون يشتمل مسالمة الإسلام بإعلان الحرب على الإرهاب، من أجل إقامة فصل جذري بين المتعصبين المتوهمين وجماع المسلمين. هذا الأمر يقتضي الشروع بأسرع ما في الإمكان في إقامة سلام عادل في الشرق الأوسط.

وينبغي إحلال سياسة توحد بن أجزاء كوكب الأرض محل السياسة الإمبريالية. وعلاوة على الصين والهند وأوروبا وأمريكا اللاتينية، فإن من المهم إنشاء مجموعات كبرى موحدة ستصير أقاليم كبيرة في كوكب الأرض، ويصير من بينها مجموع عربي إسلامي يعيد الصلة بصيغ جديدة مع الخلافة [الإسلامية].

إن سياسة للحضارة هي الرد الوحيد على حرب الحضارات. وبشكل ملموس ليكن مخطط من مخططات مارشال لأجل المناطق من المجتمع العالم التي تتردى في أحط دركات البؤس

(وتدخل في ذلك تعبئة مكثفة للشباب في البلدان التي تنعم بالرخاء لتقدم يد المساعدة إلى البلدان المحرومة؛ وإنشاء وكالة طبية ووكالة لتقديم الإسعافات الطبية إلى الساكنة العاجزة عن تحمل تكاليفها) راجع الفصل الخامس («ظهور المجتمع العالم»). وفي الأخير فإن النوع الجديد الذي صرنا نراه من الحروب يقتضي وجود مركز عالمي لمحاربة الإرهاب تكون له أقسام وفروع تفي بهذا المراد.

لقد ابتدأت السياسة الأمريكية بالمراوحة بين الجنون والحكمة، وبين الحرب الإمبريالية والحرب الاتحادية، وبين تراجع الوعي وحصول الوعي. وبعد هذا التعريج بين السبيلين وانقلب تدخلها المكثف في أفغانستان إلى الإسوإ، لكن السبيل الثانية تظل ممكنة. وفي الأخير فقد حان الوقت للرد على التعقد الكوكبي : ينبغي الاعتراف بالتعارضات والتناقضات التي لا يخلو منها مجال من المجالات أو حقل من الحقول، وينبغي الاعتراف بالعلاقات والتفاعلات بين كل الأجزاء.

إننا ملزمون بأن نخوض كلاً على حدة في نفسه معركة روحية. فالفكر البشري يحمل في ذاته أسوأ الشرور؛ شرور عدم الفهم والعمى والوهم والجنون. لكنه ينطوي كذلك على إمكانية العقلنة والتبصُّر والتفهم والرحمة. فلاوجود في الوقت الحالي لمخرج من حالة الهمجية التي تسود العالم يكون مخرجاً فاضلاً حقاً.

ينبغي أن نتحاشى الأسوأ من أجل الذهاب في الاتجاه الصحيح : صوب المجتمع العالم والأرض الوطن. وربما وجب

أن نزيد تقدماً صوب الهاوية من أجل أن نقوم بقفزة حقيقية نحو الخلاص، ومن أجل أن يتحقق المجتمع العالمي في مجتمع للأمم والثقافات المتحدة ضد الموت. ليصير عدم السقوط في الكارثة وهو الحظ الأخير.

الواقعية واليوتوبيا



تتمثل مشكلة الواقع في أننا نعتقد بحق أننا نعرفه، والحال أنه شيء لا نعرف عنه إلا قليلاً. فالماضي، ماضينا، الذي يبدو لنا شيئاً واضحاً، ليس له شيء من ذلك الوضوح. فلو تمعنا في القرن العشرين، الذي يقوم لنا، على وجه الإجمال، بمثابة الماضي، فلا يمكننا أن ندرك أن الشيوعية لم تكن هي وحدها التي لم نفكر فيها جيداً، بل وكذلك كان حالنا مع النازية أيضاً. فالنسخة السوفييتية، المدعاة «شيوعية»، من الماركسية تتخذ قناعاً يخفي واقعاً متعارضاً جذرياً وإديولوجيته. إنه واقع يصعب تحليله ويصعب فهمه وتصعب معرفته إلى حد أن فرونسوا فوري، ذلك المؤلف الذي كان شيوعياً في فترة الحديد، قد كتب عن الأهواء الثورية في كتابه «**ماضي وهم**»[1]، ومن غير أن يعرف الطبيعة الدينية لهذه الشيوعية التي تزعم لنفسها أنها عبادة دنيوية ومصدر رائع للأمل. إن الشيوعية، كمثل سائر الديانات الكبرى، قد خلقت لها شهداء وأبطالاً وجلادين ومضطهِدين. فما هي بالديانة العادية، بل هي حركة مسيحية عظيمة قد التهمت عصرها وغيّرته. وأما في ما يتعلق بالاتحاد السوفييتي فينبغي القول إن تلك اليوتوبيا، يوتوبيا

1 - François Furet, *Le Passé d'une illusion*, Robert Laffont/Calmann-Lévy, 1995.

الاشتراكية المقيّدة، فقد قامت على عقيدة لم تكن تُتخذ بكونها التصور الواقعي الوحيد للتاريخ. والأفظع في اليوتوبيا ما يتوهم لها الناس من أنها منبنية على الضرورة التاريخية وعلى قوانين التاريخ وعلى تنبؤ علمي بإطلاق. وفي المقابل فإن اليوتوبيا غير المؤذية ولا الضارة هي اليوتوبيا التي تعلم الناس عنها أنها يوتوبيا وأنها تتموضع خارج الواقع بصورة كلية.

إن نقد اليوتوبيا شيء ضروري، لكن لا يقل عنه ضرورةً نقد الواقعية. فأين هو الواقع اليوم وأين هي الواقعية؟ وأما الحاضر فإن له وجهاً ملغزاً وغير يقيني. هذا أمر يمكن أن نراه حتى في الغرب. فإن كل ما يمكن أن يبدو صلباً، وما يمكن أن يبدو أنه يعمل يمكنه أن يتخلع ويتهدم. والحاضر لا يزال شيئاً مجهولاً. فنحن لا نعرف ما سيقع. فنحن نعيش في ما يشبه منطقة إعصارية ذات ضغط منخفض. ونشعر كأن عاصفة توشك أن تنفجر، لكن لا إنها لا تنفجر، وتلوح كأنها تبتعد. لكنها لم تبتعد حقاً. إن الوقت الحاضر يسوده اللايقين. فأما في ما يتعلق بما بعد الشيوعية فإن ما حدث كان شيئاً لا يدور في الحسبان.

ويفيدنا التحليل الذي قام به المؤرخ السوفييتي إيوري أفاناسييف أنه ما أن يتشتت هذا الجهاز الهائل إلى ما لاعد له من القطع حتى تصير كل قطعة مقاولاً رأسمالياً صغيراً. والمثير في الأمر أن هذه الطبقة المستفيدة* نفسها التي توجد في قلب نظام كان

---

*-(هـ. م) يستعمل المؤلف لفظ *apparatchiks* في الروسية دلالة على هذه الطبقة.

يراقب كل شيء هي نفسها التي تحولت إلى مقاولين حيويين في اقتصاد السوق أو وطنيين متعصبين للاندفاعات القومية الجديدة. وما قولنا في التراجع الديمقراطي؟ وماذا سيقع في روسيا؟ يبين لنا أفاناسييف أنه ليتسنى لنا أن نسائل المستقبل ينبغي أن نعيد مساءلة الماضي؟ فكيف ستكون السبيل التي ستسلكها روسيا صوب ما نجرؤ على تسميته حداثة – لأن هذا المفهوم بات يلاقي المدافعة من كل جانب.

نهاية المستقبل وعودة أساطير الماضي

يتميز واقع الحاضر بالانهيار الخفي- خفي لأن تحققه قد استغرق وقتاً غير يسير – لنيزك هائل. فكما كان الشأن بالنسبة للنيزك العظيم الذي سقط في أواخر العصر الثاني، ذلك السقوط الذي يُعزى إليه انقراض الديناصورات، فإن هذا السقوط قد غطى بالسحب وجه الأرض ولوقت طويل. وأما هذا النيزك الجديد فلن يغتال الديناصورات، بل سيقضي على مستقبلنا. سيقضي على ذلك التقدم المضمون، ذلك التقدم «*nickel*»، وذلك الأفضل المتواصل الذي كان يوجهنا ويمدنا بالأمل. إن فكرة التقدم الحتمي والآلي والقدري واللازم والرائع والمشرق هي التي تم تقويضها.

في هذه الظروف نفهم جيداً أن تحدث عودة صاخبة للماضي لأنواع من الماضي. وهي عودة تكون بطبيعة الحال أقل عنفاً حيث يكون الحاضر أكثر قابلية لأن يُعاش – بكل التباساته – وأكثر عنفاً بكثير؛ حيث يكون الحاضر يبعث على القلق والتعاسة. وهنالك

حيث تشعر عن صواب – وأحياناً عن خطإ – أن الهوية نفسها مهددة. إن الماضي يعود بما لا عدله من الصور اليوتوبية والارتدادية، حسب تعبير سامي ناير. وإن ابتكار الدولة القطرية قد كان مولداً للأزمنة الحديثة وكان نتاجاً للأزمنة الحديثة. فالدولة القطرية تنطوي في ذاتها على فكرة بأن هنالك جوهراً أمومياً وأبوياً يغلفنا فهي الوطن الأم؛ أي فكرة الجماعة العميقة، ذات الطبيعة المؤاخية. وقد كان ذلك هو السبب وراء إطلاق تلك الدعوة العالمية، في القرن العشرين، إلى الأمة، من أجل تحرير ضحايا الإمبراطوريات الاستعمارية. فقد تشكلت أولى الأمم الاستعمارية الكبرى، كفرنسا وإسبانيا وأنجلترا، بفعل التقاءات واندماجات – بطيئة من الناحية التاريخية – لأعراق شديدة تباين واختلاف. والحال أننا تطالعنا اليوم إرادات أحادية العرق، تتشكل أمماً.

وفي هذا السياق ينبغي التأكيد على الأهمية التي يكتسيها الشرَّان اللذان يمكن أن تؤدي إليهما الدولة القطرية؛ نريد بهما التطهير وتقديس الحدود. فمن أسف أن فكرة التطهير توجد في صلب تكوين الأمة الإسبانية، كما نراها في إقصائها للمسلمين واليهود. ووقع التطهير في أنجلترا، كما نراه في الطرد الذي وقع على الكاثوليك ووقع في فرنسا بإلغاء مرسوم نانت. واليوم في أوروبا ليست الأوطان هي ما ينبغي تجاوزه، ولا هي الأمم، وليس المراد تجاوز الدول أيضاً؛ وهي التي ينبغي الحد من سلطاتها، وإنما الذي ينبغي تجاوزه هو التطهير، وهو التقديس. ولذلك فإن لشينغن قوة رمزية كبيرة، كما لجواز السفر الأوروبي. ولذلك

فالعملة الواحدة، إن كان لها من فائدة اقتصادية، فيمكن أن يكون لها كذلك مبرر رمزي.

المثال السياسي والواقع السياسي

إذا ما سعينا إلى تشريح الواقع اليوم فينبغي أن نطرح عنا الواقعية البدائية التي تقول بضرورة التواؤم مع الآني، ومع النظام القائم، ومع الواقع المقرر، والتسليم بانتصار المنتصر. فماذا نحن واجدون في ما بعد الواقعية البدائية؟ ينبغي الإقرار بأن الواقع يعتمل بالإمكانيات، وأننا لا نعرف ما الذي يمكن أن يسفر عنه ولا كيف للمرء أن يختار غاياته الخاصة به أو يختار فريقه. إن في الواقع البشري يتعايش المتخيل مع الأسطوري ويتعايشان بطبيعة الحال مع الوجداني العاطفي، وهذا أمر لا تكفي أن تحيط به التقسيمية المميزة للعلوم الاجتماعية والإنسانية. وأما الاقتصاد فهو علم بالغ الجمال. لماذا؟ لأن موضوعه الأرقام والكميات. فيكفي المرء أن يريِّض ليحصل على الكمال؟ لكن ما الذي أفرِغ من هذا الكمال : إنه اللحم والدم والرغاب والمعاناة والسعادة والثقافات. إنها مشكلة الواقع اليوم؛ بعد أن باتت السياسة تابعة كلياً للاقتصاد وصارت تهمل من الحياة لحمها ودمها.

فيلزمنا لنستعيد «الواقع الحق» أن نعرف مخاطر الخطإ والإيهام التي تنطوي عليها كل معرفة من المعارف. وثمة أمرٌ مبتذل، لكن ينبغي أن نظل نكرره على الدوام : أن المعرفة هي ترجمة وإعادة بناء. ولذلك لا توجد معرفة تكون انعكاساً

فوتوغرافياً للواقع. وبطبيعة الحال فالمعرفة التي تكون في صورة أفكار ونظريات تكون ترجمة وإعادة بناء مهذبة، لكن يمكن أن تعتورها ضروب من الأوهام وضروب من المغالطات. وذلك هو ما حدث على مر التاريخ البشري. وقد كان ماركس وإنجلز يقولان إن تاريخ البشرية هو تاريخ أخطاء وأوهام يكونها بنو البشر عن أنفسهم وعما يفعلون. فيكونون هم أنفسهم أخطاء وتوهموا أوهاماً. والوهم هو أن تقول: «إنني أدعو واقعاً ما أعتقد أنه الواقع»، وأن تقول: «إنني أدعو واقعية ما يترتب عن تصوري للواقع». فالواقع، حتى أشده إغراقاً في الذاتية، قد كان له على الدوام وجه ذهني وذاتي. فمعرفة الواقع تقتضي وجود ذات تكون قادرة على التفكير بطريقة مستقلة وناقدة وتكون، بحكم ذلك أيضاً، قادرة على مساءلة الحقائق التي تبدو في صورة عقائد بديهية في إطار نظام الأفكار الذي توجد فيه. وأضيف أن الحط من شأن كل أخلاق ذات استقلال وكل مسؤولية ذات استقلالية كان هو القاسم المشترك بين سائر النزعات القومية المتحاربة، وبين سائر النزعات الكليانية وبين الستالينية والنازية.

لقد ألمح البولوني آدم ميشنيك إلى ما شكل تمرداً في صلب النظام الستاليني؛ وهو تمرد خبرته وعشته على طريقتي، وعشته كذلك مع أصدقائي البوليونيين في سنة 1956. فما الذي حدث في تلك اللحظة؟ إن أولئك الذين نفَذوا ببصيرتهم إلى حقيقة النظام لم يكونوا هم أولئك الذين قاموا بالحسابات الاقتصادية ليقولوا إن ما كان ماركس يقول عن مسلسل تفكك الرأسمالية ربما

لم يكن صحيحاً بإطلاق وإن الرأسمالية لا تتفكك في الحال وعلى الفور. وليسوا هم أولئك الذين كانوا يقومون باختبارات نظرية عقلانية. بل إن الذين نفذوا ببصيرتهم إلى ذلك النظام هم أولئك الذين كانوا يقولون : «لقد ضقنا ذرعاً بكل هذه الأكاذيب وكل هذا الخزي والعار». إن التمرد الأخلاقي يؤول في معظم الأحيان إلى وعي أكثر نفاذاً من القبول بالأمر الواقع.

إن الذاتية ليست عدواً للاعتبار الموضوعي للوقائع. فمن اللازم أن يكون المرء ذاتاً / فاعلاً ناقداً.

لقد أصبح نفاذ البصيرة الذي تهيئه الثورة التقنية شيئاً أساسياً لفهم الواقع في حد ذاته. وذلك هو ما كانت تعبر عنه رسائل المنشقين السوفييت، بدءاً من سولجنتسين. فهذا هو نفاذ البصيرة وهذا هو الفهم. وينبغي للمرء أن يكون في معظم الأحيان منحرفاً أقلياً لأجل أن يكون في الواقع. وعلى الرغم من أنه لا يوجد في الظاهر من منظور، ولا توجد من إمكانية أو خلاص فإن الواقع ليس مجمداً إلى الأبد، بل إن فيه لغزاً وينطوي على لايقين. والمهم ألا يقبل المرء بالأمر الواقع.

وإن ثمة صراعاً بين المثال السياسي *Ideal-Politik* والواقع السياسي *Real-Politik*؛ بين السياسة التي تريد أن تجيب عن مثل والسياسة الواقعية. إن هنالك تناقضاً بين الاثنتين. هنالك بالفعل حالات ينبغي أن نقدم فيها الواحدة على الأخرى. وكثيراً ما نقدم السياسة الواقعية على السياسة المثالية. لكن ينبغي أن نفهم أن في الإمكان أن نفعل العكس أيضاً.

إن العلاقة بين المثال والواقع علاقة حوارية، أي أنها علاقة تكاملية بين وجهتي نظر متعارضتين، ينبغي الجمع بينهما هما الاثنتان، مع إعطاء الأولوية تارة لإحداهما وطوراً للأخرى. ولنذكر بالمبدإ الشهير؛ مبدإ الواقع الذي نعارض عن صواب بينه ومبدإ الرغبة، وإن تكن الرغبة جزءاً من الواقع. لكن الرغبة ليست بتلك الملموسية ولا بذلك اليقين اللذين كان الناس لا يزالون يتصورونهما لها على زمن فرويد. فلذلك أعتقد أنه ينبغي أن نُدخل اللايقين في صلب الواقع لنحصل على مبدإ جيد للواقع.

إن إدخال اللايقين في الواقع لا يعني أن كل ما في الواقع غير يقيني. فنحن مقودون لنبحر في محيط من اللايقين خلال جزيرات وأرخبيلات من اليقين. إذ يوجد عدد كبير من اليقينيات المحلية والجزئية والشذرية تساعدنا على الإبحار. لكن على الرغم من ذلك فلا ينبغي أن ننسى اللايقين أبداً. فنحن نعيش مشكلة واقع معقد ومتعدد وغير يقيني وفي تكوُّن مستمر. وما هو بالعمل التحأرضي فحسب، استمداداً من تلك الصورة الهيغلية عن «العجوز المزعجة»[2].

إن الواقع يتقدم «كهيأة سلطعون»؛ أي بانحرافات غريبة من كل الوجوه وغير سوية وبلهاء. وتشكل هذه الانحرافات اتجاهات

2- «يبدو في معظم الأحيان أن الفكر ينسى نفسه، ويضيع، وأما في الداخل فإنه يكون على الدوام في تعارض مع نفسه. فهو في تقدم داخلي - مثلما قال هاملت عن فكر أبيه: «أحسنت، أيها العجوز المزعج!». -إلى أن يجد في نفسه القوة التي تؤهله لكي يرفع القشرة الأرضية التي تفصله عن الشمس [...]. «حينذاك ينهار الصرح الذي يقام من غير روح وتظهر الروح في شكل شباب جديد»، هيغل في خاتمة مقدمته لكتاب **تاريخ الفلسفة**:

Hegel, *Cours sur l'histoire de la philosophie*.

ستغير الواقع. إن الواقع شيء غير يقيني عن الممكن والمستحيل أو ينبغي أن نقر به.

إننا نمتلك الإمكانيات المادية والتقنية التي تقدرنا على حل عدد كبير من المشكلات البشرية، من قبيل الجوع في العالم. ومع ذلك فإن من المستحيل تحقيق ذلك بسبب من البيروقراطيات وأشكال الفساد والقواعد الاقتصادية والعلاقات بين الدول. إنه عالم يصير فيه الممكن مستحيلاً، أو يصير فيه المستحيل على حين غرة شيئاً ممكناً.

ولكن عندما يحصل إشباع من التناقضات والتنازعات وعندما لا يصير بمقدور نظام من الأنظمة أن يحل بنفسه مشكلاته، فإما أن ينهار أو يظهر نظام جديد؛ نظام فوقي يمتلك عدداً معيناً من المبادئ والقواعد تسمح له بمعالجة مشكلاته. وإن الظهور الخلاق لنظام فوقي يبدو أمراً غير معقول. وإنه لأمر بعيد عن الاحتمال. لكن البعيد عن الاحتمال كثيراً ما حدث في التاريخ البشري.

من أجل فكر مركب

ما الذي ندعوه فكراً مركباً؟ إننا ندعو مركباً شيئاً مشوشاً وغير مفهوم ولايقينياً، يبلغ من اللايقين حتى لنعجز أن نأتي له بتعريف.

والبعض يعتقدون بكثير من السذاجة أن الفكر المعقد ينتشر ويتقوى لأننا بتنا نسمع أكثر فأكثر: «آه، يعرف هذا، إنه شديد التعقيد...». لكن عندما نقول: «إنه شديد التعقيد»، فنحن نعني:

«إنني أعجز عن الإتيان بجواب». والحال أن الفكر المعقد هو الفكر الذي يحاول أن يجيب عن تحدي التعقيد، لا الفكر الذي يلاحظ العجز عن الإتيان بجواب. إنه يسجل أمرين ينبغي الإتيان لهما بجواب. وأول هذين الأمرين هو اللايقين.

أي فكر مقود ليقاتل لأجل أن يتزاوج مع الواقع. فكيف يكون القتال والتزاوج في وقت واحد؟ ههنا أيضاً يكون التعقيد؛ كما بين ذلك دولاكروا في لوحة فائقة الجمال لكنيسة سان سوبليس المسماة «**صراع يعقوب مع الملاك**». فإذا نظرتم إلى تلك اللوحة قلتم في أنفسكم: «هل يتجامعان؟ أم يتقاتلان؟». وهذا هو مقصودنا على وجه التحديد؛ فالصراع ضد اللايقين والمعركة التي تستعمل اللايقين شيئان لا ينفصلان.

ومثلما انهارت الفكرة القائلة بنظام حتمي للعالم والتاريخ انهياراً كلياً فإنكم مجبرون على مواجهة اللايقين من جهة، ومن جهة أخرى فكما أن صيغة التفكير الاختزالي والتجزيئي قد باتت تُفتضح حدودها وعماها المتعدد، فينبغي لكم أن تفهموا التعقيد بالمعنى الحرفي لكلمة *complexus* – أي ما يتم نسجه جماعة.

كتب باسكال في القرن السابع عشر ما يفترض أن يكون بديهية من البديهيات: «إن جميع الأشياء حتى أنآها تقترن ببعضها وإن بصورة غير محسوسة، وكل الأشياء تستعين ببعضها وتعين بعضها وتنجُم عن أسباب وتكون أسباباً» – ينطوي في حد ذاته على معنى المفعول الارتجاعي. وزاد باسكال قائلاً: «إنني أرى من

المستحيل معرفة الكل مالم أعرف الأجزاء جزءاً فجزءاً، كما أرى من المستحيل معرفة الكل ما لم أعرف الأجزاء جزءاً فجزءاً»[3].

فلقد أدرك باسكال أن المعرفة سفَر من الكل إلى الأجزاء ومن الأجزاء إلى الكل؛ وتلك هي الرابطة، أي القدرة على الوضع في إطار سياق، ووضع معرفة ومعلومة في سياقهما، من أجل أن يصير لهما معنى. فلماذا صرنا نلاقي صعوبة في أن نستعمل قدراتنا المعرفية التي تشتغل في إطار سياق وفي إطار عام؟ لأننا بتنا نتعرض لتأثير متزايد من الفكر التفريقي والفكر الاختزالي والفكر الخطي والحال أن المشكلات في عهدنا الكوكبي هي مشكلات تسير نحو الاقتران ببعضها.

ونحن لم يستوقفنا ما قال باسكال بل ما قال ديكارت؛ أي أنه ينبغي أن نفصل [بين الأمور] لنقدر على فهمها. فينبغي فصل العلم عن الفلسفة، وينبغي فصل العلوم عن بعضها، وينبغي فصل العناصر عن بعضها... نعم، لكن بشرط أن يكون المنفصل قادراً على أن يعود فيتصل من جديد. والحال أن ما نرى اليوم هو فصل إلى أجزاء لا يعود بينها من اتصال.

إن هذا التفكير التجزيئي هو الذي يهيمن، وهو الذي يعيد عزل الأجزاء في صلب العالم، والذي سيقطع العالم طولانياً إلى قطع اقتصادية وتقنية، إلخ. وهذا الفكر التقني العلمي الذي يتجاهل الكائنات والأناسي والثقافات يعجز بطبيعة الحال عن فهم

3 - Pascal, *Pensées*, 72, éd. Brunschvicg.

مشكلات هذه الأعراق الاجتماعية المتمركزة، مثلما أن الأعراق التاريخية المتركزة عاجزة عن معرفة المشكلات المتصلة بالتقنية. إن هذا النوع من التفكير هو الذي اكتسح السياسة. وإن هذا كله ليضعنا اليوم في وضعية بالغة الخطورة.

ومن وجهة النظر هذه، تكون الضرورة تتمثل في الربط. فالفكر المركب يجتهد للربط. وإن تشريحي على صعيد العمل وعلى صعيد السياسة نفسيهما يفيد أننا في مواجهة معركة بين القوى المؤلفة والقوى المفرِّقة. تكافل أم هجمية بربرية؟. ولسوف ننفجر من الافتقار إلى التكافل. وسننفجر كذلك من غياب شكل من التفكير.

وَفِيمَ تكون هذه المشكلة مشكلة فكرية؟ إنها كذلك لأن البدائل التقليدية تكبل الفكر. إن الواقعية واليوتوبيا متناقضتان تنفي إحداهما الأخرى حسب نمط الفكر المستقبَل. هل أنتم واقعيون؟ بلا يوتوبيا؟ وهل أنتم يتوبيون؟ بلا واقعية؟ والأمر نفسه يسري على الواحد وعلى المتعدد. فالبعض لا يمكنهم إلا أن يجانسوا ويتوحدوا بصورة مجردة؛ والأخرون يرون بالفعل التنوع بصورة جيدة، لكنهم يرونه في صورة مقسمة ومجزأة. والمشكلة تكمن في عدم القدرة على التخلص من هذين الخيارين المشوهين، وعدم القدرة على تفكير التعقيد. إنه التحدي الكبير الذي يواجهنا.

من أجل إناسة سياسية

إن الاختيار بين التكافل والبربرية اختيار يتخذ معناه ليس في الوقت الراهن، أو بشكل ملموس، أو في المعيش، أو على الصعيد

المحلي فحسب، بل وعلى الصعيد الأوروبي والصعيد الكوكبي أيضاً. وإن هذه الموضوعة تجعلنا نساهم، حيثما كان لها وجود، في قوى الشراكة والتكافل، على أمل أن تكون أقوى من قوى القطيعة والتفرقة والحجب.

هذا الأمل يدفعنا في حركة، إن هي لم تنكسر فربما تقودنا لا إلى أفضل العوالم، بل إلى أن نطمح إلى أفضل العوالم. ولئن كان محتماً علينا أن نفقد الوهم المسيحي بمستقبل مشرق فيمكننا دائماً أن نغذي الأمل في عالم أفضل، حتى ونحن نعرف أنه لن يكون مضموناً أبداً.

وأما أنا فأرى الوطن الأرضي في الوعي بأننا ننحدر من جذع واحد ومن رحم واحد- هو الأرض- عبر التحول الحياوي. وهو الوعي بأننا نمتلك هوية واحدة، وأن الكائنات البشرية تشترك جميعاً، مع كل تنوعاتها الثقافية وابتداء من العهد الكوكبي، في المصير الواحد خلال جميع مشكلات الحياة والموت.

لقد عرَّف أوطو بوير في أواخر القرن التاسع عشر الوطن بأنه جماعة مصيرية، لكن مع القول بهوية مشتركة من خلال الثقافة وأصل مشترك، خرافي، وسلف أسطوري مشترك. والحال أن وطني الأرضي لا يكون السلف أسطورياً، بل هو ذو قائمتين صغير. إنه ههنا، إنه أبونا. وليست جماعتنا المصيرية بالأسطورية، بل هي جماعة ملموسة. إن فكرة الوطن الأرضي فكرة واقعية جداً،

بما أنها تنبني على هوية إناسية، وعقلية جداً، بالنظر إلى تحديات الحياة والموت المطروحة علينا. وربما كانت –فكرة دينية – بمعنى أنه يُفترض بها أن تربط بين بني البشر بآصرة الأخوة.

ويلزمنا، نحن أطفال العهد الكوكبي، أن نواجه المشكلة العظمى. فقد كانت الاشتراكية تؤمن بأن شرور البشرية تتجسد في وحش واحد، هو الرأسمالية: فإذا قضيتم على الرأسمالية قضيتم على الشرور التي تلحق بني البشر. وقد رأينا أن زوال الرأسمالية لم يكن سبباً تزول به الحروب، ولا كان سبباً يزول به الاستغلال. وصرنا ندرك أن الأغوال كثيرة. وما هي بالوحوش الصغيرة، بل صارت تفوق بعضها عظماً وضخامة: وحش البيروقراطية التقنية ووحش الانتشار الجامح للعلم التقني...

إن هذه العوامل تكون لها كلها عواقب على الحياة اليومية، وتخلق ألاماً عميقة، وتحول أوضاعنا التَّرفية إلى أوضاع مريرة.

وعدا ذلك فبعد الوهن الذي ران على الماركسية أصبح الفكر اليساري عاجزاً عن أن يعيد التفكير في المشكلة الإناسية الاجتماعية أو يتصور سياسة إيجابية وتاريخية. وأما في القرن الماضي فقد تشكلت الاشتراكية وانخرطت في منظور تاريخي. وقد عاد المنظور التاريخي من جديد ليكون ضرورياً.

وأخشى في غياب التصميم الكبير لو حدثت أزمة قاصمة وعنيفة أن نتعرض إلى تبعات وعواقب كارثية. فلو حدثت أزمة كبرى، فلن نكون في مأمن من التراجعات الرهيبة. فخلال أزمة 1929 التي حاقت بألمانيا، في ظروف لم تكن أقسى عليها مما على سواها من البلدان فحسبُ، بل إن تلك الأزمة قد حدثت في سياق طابعه الاحتقار القومي الكبير، كان من المشروعي تماماً أن تصعد النازية. لكن كان في الوقت نفسه بطبيعة الحال «العهد الجديد» *New Deal* الذي جاء به روزفلت، وقد كان حلاً ديمقراطياً. ولأن الولايات المتحدة بلد المهاجرين فهذا مكَّن للعمل الجديد أن يؤتي ثماره.

ليس لنا مناص من أن نكون متنبهين يقظين. وقد خامرتنا في وقت قريب كذلك أمال عراض. لكن ماذا كانت تلك الآمال العراض؟ لقد كانت الدمقرطة المعممة، وكانت الخروج من اقتصاد قائم على الإكراه وعلى الفقر. وكانت أن نرى تنظيم الأمم المتحدة وقد صار له مفعول. لكن مثلما هو «ربيع الشعوب» لسنة 1848، كان ربيع سنة 1989 قصيراً جداً. وسرعان ما أعقبته موجات من القمع الشرس. فلا نستطيع بعدُ أن نعود نمني أنفسنا بعض بالآمال العراض، وبالآمال الخرقاء، مثل تلك التي راودتنا في التحرير.

لقدكنا خارجين من النازية، وسرعان ما منيت آمالنا بالخيبة. لكن هل ينبغي لنا أن نكرن دائماً في خيبة من الأمل وفي حالة من اليأس؟ كلا. أعتقد أنه ينبغي أن نعيش النشوات التي يمدنا بها التاريخ في امتلائها، فهي تنفِّس عنا سنوات عدة من الرداءة. وقد

خبرت شخصياً نشوات من التاريخ. فقد خبرت تحرر باريس. وكان ماي 68 نشوة صغيرة من التاريخ استمتعت بها. وشاء لي حسن الحظ أن أكون في لشبونة وقت أن اندلعت ثورة القرنفل*. وأما سقوط جدار برلين فقد عشته بالتوكيل، فلم أكن في عين المكان، لكنني سعدت بأن أرى روستروبوفيتش يعزف أمام الجدار.

إن الحياة لا تكون قابلة لأن تُتحمل ما لم ندخل فيها، لا اليوتوبيا بل الشعر؛ أعني شيئاً من الكثافة والاحتفال والفرح والمشاركة وشيئاً من السعادة والحب. وتوجد نشوة تاريخية وهي نشوة عاشقة جماعية.

كتب ألبيروني في «**صدمة العشق**»[4]، والترجمة الصحيحة لهذا العنوان ستكون هي «**الانغرام**» – تلك اللحظة الرائعة الفتانة حين يتحول المرء إلى عاشق، كتب: «إن الثورات الناشئة هي لحظات انغرام». فليس هو «الصراع النهائي»، بل هو «الصراع البدئي». وربما ذهبت إلى حد القول: «أين نحن؟» بل إنها مقدمات لصراع بدئي. لماذا؟ لأنه ينبغي القيام بإعادة بناء ثقافية رائعة، ينبغي في اعتقادي أن نقوم بإصلاح للفكر، وينبغي أن نبين عن أهليتنا لمواجهة تحدي اللايقين. وإن هنالك طريقتين لمواجهته. فأما الأولى

---

* ثورة القرنفل هي ثورة حدثت في البرتغال في25 إبريل 1975. واستسلم على أثرها رئيس الحكومة مارسيلو كايتانو، المحاصر في هيئة أركان الدرك، ونقل سلطاته إلى الجنرال سبينولا وفي الليل قامت الحشود بالإفراج عن مئات السجناء السياسيين وانهار النظام الديكتاتوري في البرتغال.

4 - Francesco Alberoni, *Le Choc amoureux, recherches sur l'état naissant de l'amour*, Ramsay, 1981.

فهي الحزب؛ فنحن نكون نعرف بوضوح ما نريد، وترانا نراهن على المضي إلى الأعالي مهما خشينا على أفكارنا الانهزام. وأما الثانية فهي الاستراتيجية، أو بتعبير آخر إنها القدرة التي تكون لنا، تبعاً للأخبار المتلقَّاة وتبعاً للصدف، على تغيير سلوكنا.

إن المقاومة لا تكون سلبية خالصة. فهي لا تتمثل في مجابهة قوى قاهرة، بل تهيء لأشكال من التحرر. كذلك نراها في المثال البولوني ونراها في المثال السوفييتي ونراها في المثال الذي تشكله فرنسا الواقعة تحت الاحتلال. والمقاومة لها فضيلة في ذاتها. فنحن منذورون لأن نقاوم. وما أسميه «العيش» لا أريده بمعنى العيش بصورة شاعرية فحسب، بل أريده كذلك بمعنى أن نعرف كيف نقاوم في حياتنا. ولننصت إلى هرقليطس يقول: «إذا أنت لم تسع وراء الشيء غير المؤمل فلن تفلح في الوصول إليه». وعودة إلى هذه الفكرة أريد فكرة المستحيل الممكن، فهي فكرة بحاجة إلى تعميق.

لقد مضى علينا وقت طويل ونحن نقول إن الأرض ينبغي أن تكون البستان المشترك بين بني البشر. والحال أن أجمل ما في البستان هو التعاون بين الطبيعة والثقافة. فالبستان هو المكان حيث تتعاون الاثنتان، بدل أن تدمر إحداهما الأخرى. وفيه تتطور القيادة المشتركة بين الطبيعة والثقافة. فينبغي لتعاون القوى البشرية الواعية والقوى اللاواعية في هذا القسم من الأرض أن يتم على صعيد المحيط الحيوي.

إن تحضير الأرض وتحويلها إلى بستان مهمةٌ ثقيلة. ونحن ما زلنا لما نُجاوزْ فيها مراحل البداية. وحتى إننا لا نزال غير واعين بهذا الوطن الأرض. لقد كان كنديد ينسحب بنفسه من العالم وهو

يقول: «سأمضي لأفلح بستاني». وأما اليوم، مع كنديد الجديد فينبغي أن نقول ونحن نعود إلى العالم: «لنحاول أن نفلح بستاننا».

أصولنا توجد أمامنا



ليكن مبتدؤنا بالجملة المفارقة التي قال فيها هايدغر : «إن أصولنا ليست وراءنا، بل أمامنا». ولربما أمكننا أن نخرج من هذه المفارقة بالقول إن من المحتمل أن نكون نقترب من بداية جديدة... ونحن نعرف أن تاريخ الحياة وتاريخ البشرية قد مرا ببدايات كثيرة. فالإنسان لم يولد مرة واحدة إنساناً بيولوجيا. فمن المحتمل أن يكون الإنسان الواعظ قد ابتكر اللغة، وأنه قد عرف قبل ذلك الأدوات. وقبل ذلك أيضاً كان الإنسان اللابس يعرف أن يقطع الحجارة. فنقدِّر أن في كل طور جديد تكون هنالك نهاية تكون في الوقت نفسه بداية.

ويمكننا القول أيضاً : «ربما صرنا في نهاية ما سمي بالتاريخ». فما معنى هذا القول؟ إن التاريخ ليس ملازماً للبشرية. فقد عاشت البشرية وتطورت لآلاف عديدة من السنين من غير أن يكون لها تاريخ. فما هو التاريخ؟ لقد ابتدأ منذ تكونت المدن والدول والإمبراطوريات. والتاريخ هو تطور المدن والحضارات، وهو كذلك تطور الحروب والنزاعات... والحقيقة أن تاريخ التاريخ هو أيضاً تاريخ الحروب ! فكاستون بوتهول، مبتكر «علم اجتماع الحرب» *(Polémologie)*، قد بين أن الحرب ملازمة

لتاريخ البشرية. فمن قبل كانت هنالك حروب تقليدية صغيرة. الحروب الرهيبة والمدمرة هي التي ميزت التاريخ وأدت إلى انهيار معظم الحضارات والإمبراطوريات.

ولربما نكون قد صرنا في نهاية التاريخ، لكن ليس بالمعنى الذي أراده فوكوياما[1]، وقال فيه: «لقد صرنا في نهاية التاريخ لأننا استنفدنا جميع الإمكانيات الإنسانية والاجتماعية: الديمقراطية البرلمانية والاقتصاد الليبرالي».

بل نحن في نهاية التاريخ بالمعنى الذي يفترضه رايموندو بانيكار، المفكر الهندي والكاطلاني، الذي يرى أننا ينبغي أن ننظر إلى الآلاف الست أو الثماني من التاريخ البشري لنتساءل هل هذا هو مصير البشرية. هل يمكن أن يكون هنالك شيء في ما بعد التاريخ؟ لكن إن كان هنالك شيء في ما بعد التاريخ وكان يمكن أن تكون هنالك بداية جديدة، فإن تلك البداية الجديدة تعني: بداية جديدة! أي بداية أخرى! وهذا يفترض أن بالإمكان أن تُستعلن اختيارات لإعادة البعث والابتكار، وهي طاقات نائمة أو منطمرة في عالمنا.

إن أصولنا توجد أمامنا. وإن مقولة هايدغر تتخذ ههنا كامل معناها: فلتتحقق بداية جديدة وتحول جديد ينبغي أن تتنبَّه قوات التوليد وإعادة التوليد المتضمنة في طبيعة الكائن البشري نفسها، بما هو فرد وبما هو كائن اجتماعي. في تلك اللحظة يمكننا أن نستحضر

---

1 - Francis Fukuyama, *La Fin de l'histoire et le dernier homme*, coll. Champs, Flammarion, 1993.

فكرة الإنسان الجنسي الذي تحدث عنه ماركس في المخطوطات السياسية والاقتصادية التي كتبها في سنِّي شبابه. فلم يكن ماركس في ذلك الوقت يعرف بعلم الوراثة، فلم يكن يتحدث عن الجينات؛ بل كان حديثه عن السلطات المولدة أي الخلاقة.

فيمكننا أن نسمي القدرات التوليدية لدى الكائن البشري حسب المصطلح اليوناني *archê*. وهي كلمة لا تعني «القديم» و«العتيق» فحسب، بل تعني كذلك «الباني» و«الأصيل». وبتعبير آخر، فلتتحقق بداية جديدة في البشرية ينبغي أن نعود إلى الأصل، أو بالأحرى ينبغي أن يستيقظ الأصل.

ولو أردت أن أتحدث بلغة الحياوة البشرية فيمكنني أن أقول إننا قد أمكننا منذ وقت قريب أن نستبين في الجهاز البشري الكبير – وفي مختلف أجزاء الجسم وفي النخاع الشوكي وفي المخ – خلايا جذعية. وتكون هذه الخلايا وهي في حالة المضغة تمتلك قدرات عديدة. فهي متعددة الوظائف، ويمكنها أن تكون مولِّدة بطرائق مختلفة لجميع أنواع الخلايا، القادرة على خلق خلية كبدية وطحالية، قدرتها على خلق خلية من خلايا المخ أو خلايا الجلد. هذه الخلايا، ذات القدرات اللامتناهية، تشتغل لتحولنا من مضغات إلى كائنات بشرية. ثم إنها تلوح لنا عند الميلاد كأنما اختفت. وماهو بالأمر الصحيحَ؛ فهي موجودة على الدوام! وإنما هي مندفنة وراقدة. وقد صرنا نرى الأبحاث اليومَ تتناول الجرذان والفئران، فتعيد تنشيط الخلايا الجذعية وتسمح بإعادة خلق القلوب والأعضاء المتآكلة. ونحن لم نفقد الأمل في

أن نبتعث في الكائن الكبير هذه الخلايا التي ستتيح له التجدد والتوالد من جديد.

أستعمل هذه الاستعارة لأنني أعتقد أن في الفرد، كما في المجتمع سواء بسواء، توجد مقدرات خلاقة. بيد أنها اندفنت منذ أن صارت هذه الكائنات إلى التخصص وإلى الشعائرية وإلى البيروقراطية وإلى التصلب. والمحصَّل أن الكائنات الخلاقة في هذه المجتمعات تعتبر بمثابة كائنات منحرفة. إن الفنانين والمبتكرين والموسيقيين والشعراء والعلماء هم الذين تتحقق على أيديهم الاكتشافات الحقيقية. ولقد جرى تحيين قدراتهم، لكنها رقدت في مكان آخر.

يصوِّر لنا أنطوان دو سانت إكزوبري في «**أرض البشر**» قطاراً يحمل لاجئين من الحرب الإسبانية عائداً بهم من الحدود الإسبانية ويلاحظ بينهم بعض الأطفال النائمين. وقد كان يعرف أن هؤلاء الأطفال سيضطرون في طلب العيش إلى الاشتغال بأشق الأعمال وأقساها، إذ سيُشغَّلون في المناجم، وحدَّث نفسه أن «في هؤلاء الأطفال يُغتال من أمثال موزار كثرٌ».

ولتنبعث هذه القدرات الخلاقة من جديد يحتاج الأمر إلى أن تتوفر ظروف أزمة. بيد أن هذه الشروط المواتية هي شروط بالغة الخطورة. فإن أزمة من الأزمات تخلق بوجه عام انحرافات؛ أي أنها تخلق كل ما يخل بالتوازنات واستقرار النظام وتسير بالتالي إلى تقويضه. فأما في الأنظمة الفيزيقية فإن تطور الردود الارتجاعية الإيجابية؛ أي تضخم نمو الانحرافات يؤدي إلى تخريب النظام

وأما في تاريخ الحياة وفي تاريخ البشرية فإن الرد الارتجاعي الإيجابي يمكن أن يكون كذلك سبباً في تحول يتحقق بالتدريج...

وأياً ما يكن فكما أن الأزمات تحرك الإمكانيات الكارثية أو الارتدادية فإنها تحرك كذلك إمكانيات خلاقة ومبتكرة. والحال أننا نوجد في أتون أزمة كونية؛ وهي أزمة لا تبين في ظواهر التفكك المقترنة، ويا للغرابة، مع ظاهرة اتحاد التقانة مع الاقتصاد، ما دام أنها مسلسلات لمقاومة هذا التوحيد مقاومة تقوم على اعتبارات تقنية ودينية.

إنها أزمة يتفكك فيها كل شيء، ويتحد فيها كل شيء أيضاً وينطوي التوحيد فيها على مخاطر الهيمنة والإهمال. ويظهر كذلك التضخم الذي صارت إليه الظواهر السالبة، كتفاحش النزعات المانوية، وهذا الاتجاه نحو ما أسماه صامويل هانتنغتون[2] – والذي آمل ألا يتحقق – حرباً معممة بين الثقافات والأديان. وزيادة على ذلك فقد بدأنا نلمس حركة من التسارع والتضخم في المسلسل المؤدي إلى المركب الفضائي الأرضي، المدفوع بأربع محركات ليس للكائنات البشرية عليها من سلطان؛ وهي العلم والتقنية والاقتصاد والربح.

إننا نعيش وضعية من التضخم، ونكاد نرى الكارثة رأي العيان. وما نسميه، بتسمية باذخة، «نمواً» يؤدي إلى انحطاط للمحيط الحيوي، وهو انحطاط يؤدي رَجعياً إلى انحطاط للحضارات

---

2 - Samuel Huntington, *Le Choc des civilisations*, Odile Jacob, 1997.

البشرية. ونحن نرى جلياً أن انتشار الأسلحة النووية وسواها من الأسلحة لا يمكن أن يظل دون أن يؤدي إلى استعمالها.

وقد بات معلوماً لدينا في الوقت الحاضر أن النظام الأرضي يعجز لأسباب اقتصادية واجتماعية وبيروقراطية وسياسية عن معالجة مشكلاته الحيوية والأساسية. وإن هذه المشكلات المتعلقة بالموت والحياة لتسير إلى تفاحش وتفاقم. إنها مخاطر لا تزيدها الصراعات الحالية إلا استشراء، كما تنتشر أسلحة الدمار الشامل. إن هذا النظام الأرضي لا يعرف في الحقيقة كيف يعالج ويقنن المسلسلات الاقتصادية، بما فيها المشكلات التي نمتلك لها جميع الوسائل التقنية، كما هي إمكانية ألا تحدث بعدُ مجاعة على وجه الأرض.

والحال أنه عندما يصير نظام من الأنظمة عاجزاً عن معالجة مشكلاته الحيوية والأساسية فإما أن يتقوَّض أو يجد في نفسه القدرة على أن يفرز تحولاً؛ أي أن يخلق نظاماً فوقياً جديداً وأكثر ثراء.

فأي تحول؟ إننا لا نستطيع فهماً كيف أن الأزمة الحالية يمكنها أن تكون سبباً في نشوء مجتمع على الصعيد البشري؛ «مجتمع عالمي». ولا يمكن لهذا المجتمع أن يكون الصورة المكبرة للدول القومية، فلا يمكننا بأي حال أن نتكهن بالوجه الذي سيتخذه ذلك التحول. غير أننا نعرف أنه يندرج في الاحتمالات التي تزخر بها الحياة نفسها. فنحن نرى كيف تتحول الشراغيف إلى ضفادع، وكيف تنسج الديدان شرنقات لتتحول داخلها وتدمر نفسها وتعيد إنتاج نفسها في يرقات أو في فراشات. ويمكننا القول كذلك إن

الحياة قادرة على خلق نظام من إعادة تجميع الكريات الصغيرة المشتملة على خصائص ومميزات لم يكن لها وجود في الفيزياء وفي الكيمياء – من قبيل إعادة الإنتاج والتصليح الذاتي والتنظيم الذاتي والمعرفة – يتمثل فيها تحول التنظيم الفيزيائي الكيميائي المحض إلى تنظيم ذاتي حياوي. لقد نسينا أننا كنا في بطون أمهاتنا حيث كنا نعيش حياة أشبه بالمائية. ولقد عرفنا هنالك التحول لنصير كائنات بشرية.

وأما على صعيد التاريخ فلنفكر أن الأرض كانت قبل ثمانية أو عشرة آلاف سنة تعمرها مجتمعات قديمة من بضع مآت من الأفراد ليس لهم دولة ولا زراعة ولا مدينة ولا ديانة مؤسسية. ومع ذلك ففي كثير من مناطق العالم وفي بعض التجمعات وخلال عمليات تحدث فيها ظواهر لهيمنات وشراكات وتكافلات لا تزال بعد غامضة في الشرق الأوسط وفي حوض الهند وفي الصين وفي المكسيك وفي البيرو نشأت مجتمعات من نوع جديد: إمبراطورية الأنكا وإمبراطورية الأزتيك والإمبراطوريات التي ظهرت في العصور القديمة في الشرق الأوسط والإمبراطورية الصينية (أقدم إمبراطورية في العالم). إن التاريخ هو نتاج هذا التحول.

وما لنا لا نذهب إلى الاعتقاد أن الأزمة الحالية يمكنها أن تخرج لنا تحولاً ما زال يتعذر علينا بعد أن نتكهن بأشكاله ونعجز حتى أن نتأكد من إمكانية حدوثه أو من عدم احتماله؟ فربما مكن للبشرية أن تحقق ذاتها من حيث هي إنسانية. وتأخذ مقولة هايدغر معنى جديداً؛ فهي تدل على عودة إلى الأصل تتجاوزه إلى أصل

جديد. لقد كان للشريحة البشرية الأولى لغة وثقافة مشتركتان. ثم أخذت في التعدد والتشتت وصارت لغاتها إلى تنوع، مثلما تنوعت طقوسها وعاداتها ودياناتها وانتشرت لتعم الأرض جميعاً. فإذا البشرية قد صارت لا يعرف بعضها بعضاً. إن الجار يصير هو الآخر، أفيكون الغريب الذي يتكلم لغة أخرى ويصدر عن ثقافة أخرى، ليس بشراً مثلنا؟ لقد دخلنا اليوم عهداً حيث البشرية الأصيلة يمكنها أن تنبعث في كامل عظم ساكنة من ستة ملايير من الأفراد.

وعليه فلا ينبغي أن نحمل هذا الكلام، الذي يفيد أن الأصل يوجد أمامنا، على محمل النبوءة أو اليقين، بل ينبغي أن نعده إمكانية ربما أمدتنا بشيء من الأمل.

هل نسير إلى الهاوية؟



أحرص، وأنا استعيد العنوان الأصلي لهذا الكتاب «هل نسير إلى الهاوية؟» في هذا الافتحاص الختامي، على أن أزيد في تعقيد وجهة نظري. وأريد بالتعقيد أن أسعى لأن أرى لااللعبة المتعددة والمتنوعة للتفاعلات وردود الأفعال والتداخلات والتعارضات على صعيد كوكب الأرض، بل وأن أرى كذلك الجوانب المتعارضة في صلب الظاهرة الواحدة، ومنها ما يربط في صلب العولمة بين المتعارضات ويعارض بين المترابطات.

وبِذا فالعولمة متعددة وواحدة معاً. فالعولمة عولمات : العولمة التقنية الاقتصادية وعولمة الأفكار الديمقراطية والإنسانية والعولمة الثقافية، وهي في حد ذاتها واحدة ومتعددة، لاشتمالها على جوانب متضادة ومتعارضة، كما أشرت في الفصل الموسوم «الثقافة والعولمة في القرن الحادي والعشرين».

وتحمل العولمة التقنية / الاقتصادية في حد ذاتها وجهين اثنين: فهي إذ تزيد من تفوق الغرب وهيمنته تزيد في ظهور قوى آسيوية جديدة؛ كالصين والهند، أو قوى من أمريكا اللاتينية كالبرازيل، وتميل في الوقت نفسه، وفي صورة متناقضة، إلى تطوير عالم متعدد الأقطاب. وفيما هي تزيد في استفحال التبعية

تؤدي عملياتها كذلك إلى توقُّف الجنس البشري، وإلى اشتراك البشرية برمتها في جماعة مصيرية فعلية. والمفارقة تكمن في أن هذه الجماعة المصيرية قد تحققت خاصة انطلاقاً من اشتداد تهديدات مميتة على صعيد كوكب الأرض كتكاثر أسلحة الدمار الشامل والتدهور المستمر للمجال الحيوي. إن ثمة صلة متينة لاتنفك عراها بين المسلسلات السالبة والمسلسلات الموجبة.

وهنالك جانب آخر «معقد» سبق لي أن نوهت إليه سنة 1990 في كتابي «**الأرض الوطن**»[1]، ثم أضحى في ما بعدُ من الأمور البديهية التي لا يختلف عليها اثنان؛ وهو أن التوحيد التقني والاقتصادي الذي أحدثه الغرب يؤدي على صعيد كوكب الأرض إلى تشرذم على أساس من العرق والدين والقومية. فالتدمير الذاتي الذي وقع ليوغوسلافيا بضغط قومي وديني، ثم التفكك الذي ناب الاتحاد السوفييتي وما نجم عنه من نزاعات (في الشيشان وأرمينيا وأزربيذجان والقوقاز) قد زادت في تأجيج الميول للارتداد إلى الهويات والانكفاء عليها. وتلك هي الأسباب التي أدت إلى الهياجات القومية وأشكال من العودة إلى الدين في الإديولوجيا السياسية، كما في الحروب الجديدة ذات المكون الديني (في يوغوسلافيا وأرمينيا / أزربيذجان).

ولقد استمر تكاثر الدول القطرية بعد انفكاك الاستعمار عن إفريقيا وآسيا. وبعد أن كانت الأمة تقوم في الأصل

1 - *Terre Patrie*, Seuil, 1993 (repris en coll. Points, 1996).

الأوروبي على أساس متعدد الأعراق للوصول إلى توحيد اقتصادي واجتماعي وإديولوجي، صارت اليوم تتشكل على أساس أحادي العرق أو أحادي الدين. وبات الارتقاء المعمم إلى السيادة السياسية المطلقة يتحقق في فترة طابعها الترابط والتواقُف المطلق.

وبِذا صار كوكب الأرض اليوم تعمره الدول القطرية من شتى النماذج والأحجام. ولئن كان للدول القطرية مبرراتها التاريخية و/أو الثقافية فإن سيادتها السياسية المطلقة تحول دون تكوّن أي سلطة عالمية مشروعة، وتجعل من المستحيل أن يوجد تدبير كوكبي للمشكلات الحيوية / المميتة التي لامناص لبني البشر من مواجهتها. إن الدولة القطرية شيء ضروري للتنوع البشري وهي كذلك عائق يحول دون وحدة بني البشر. فلا تزال المنظورات الاتحادية شيئاً معدوماً. ولقد توقفت أوروبا السياسية، ولا نعرف هل سيكتب لها الانطلاق من جديد. إن في انتصار الاقتصاد الأوروبي إغراقاً للفكرة الأوروبية. ولا تفلح السياسات المتجاوزة للأمم في الظهوروهنالك غياب تام لفكر وسياسة كوكبيين.

وكما قلت مراراً فإن العمليات المحركة للحيوية الكوكبية:

العلم ← التقنية ← الاقتصاد ← الربح

↓---------↓ ------↓ ------↑---

هي عمليات تعارضية، فلقد خلقت الأسوأ والأفضل مجتمعين ولاتزال تخلق الأسوأ، وتترك لنا أن نتكهن بإمكانية تحقق الأفضل.

ومن ذلك أن الفيزياء تواصل تجويدها لأسلحة الدمار النووي لكن الانصهار النووي، الذي سيشكل تقدماً طاقياً رئيساً، أمر بات متوقَّع الحدوث خلال نصف القرن [القابل]. فالليزر يقتل ويشفي. والتقانيات متناهية الصغر تبشر وتنفِّر. وستسير العلوم الحياوية في تطور، بأن تصير نظامية، وستصير تضم الحياوة الجزيئية في مركب من الاقتصاد الذاتي والتنظيم. وسيفتح اكتشاف الخلايا الجذعية في الأجهزة الكبيرة السبيل للمرء أن يصل إلى سن الشيخوخة وهو لا يزال بعد ينعم بريِّق الشباب وستبعد الموت (من غير أن تستطيع القضاء عليه). بيد أن التدخل في الحياة بموازاة للنتائج العلاجية الموفقة التي تحققت له، قد شكل خطراً للتدخل في البشر، من شأنه أن يخلق كليانية جديدة.

وتتسم أشكال التقدم التقني كذلك بتضاد عميق. فتطور المركب الحوسبة / الخبر / التواصل، التي شاعت تسميتها بالإعلاميات، يتيح تواصلاً متبادلاً للحساسيات والمطامح والمعارف عبر الأنترنيت، مثلما يتيح أشكالاً من الاحتيال واللصوصية الاقتصادية. وهو يُتيح مراقبة كل فرد في حياته الخاصة بواسطة مركز التحكم في الأقمار الصناعية (التيلي ستالايت)، وهي أمور تضاف إلى التدخلات الحياوية، لتمكِّن لكليانية من نوع جديد سلطة حقيقية كانت تحلم بها الكليانيات القديمة، التي تبدو اليوم

في غاية السذاجة. ولسوف يتطور الذكاء الآلي، بموازاة لتطور أداءاتها. وكما أن التقنية الآلاتية قد حررت بني البشر من أسوإ المهام الطاقية فكذلك يمكن للتقنية الجديدة أن تحرر من المهام الثقافية الثانوية أو المكلفة...

وأياً ما يكن فإن البشرية، التي باتت مقرونة بتطور الآلات ستشكل مع هذه الآلات، وكما أعلن أرنولد غيهلين، جهازاً هائلاً، إناسياً وحياوياً وتقنياً وإلكترونياً وإعلامياً وآلياً... وسيكون ذلك هو المكون الذي لا يدور في الحسبان لمجتمع عالمي لا يزال هو نفسه لا يدور في الحسبان.

وأما التنمية، ومكون النمو فيها، فلقد صارا يجتمعان في صورة ضدية شاذة وغريبة. فالتنمية التي هي الوجه الآخر للعولمة الاقتصادية تخلو، مثلما تخلو هذه العولمة، من أي تقنين. إن التنمية نتاج ومنتج للمسلسل المتأبي عن المراقبة العلم-التقنية-الاقتصاد-الربح، يحمل شتى أنواع المنافع ويحفل بشتى أنواع المثالب، ويقودنا نحو الهاوية. وقد أصبحت السوق عالمية بعد تفكك اقتصاد الدولة، البيروقراطي، المسمى اشتراكياً. فحيث توجد المنافسة الشديدة لما يسمى اشتراكية ترتفع الدعوة المسعورة إلى رأسمالية قد أطلق لها العنان، وهي لا تزال لم تجد لها منافساً جديداً يقننها.

لقد مكَّن التقدم العلمي من إنتاج السلاح النووي وهو يؤدي اليوم إلى انتشاره، وانتشار أسلحة أخرى للقتل الجماعي

كيماوية وبيولوجية. ونجمت عن التقدم التقني والصناعي سلسلة من الانحطاط في البيئة المحيطة. وخلقت عولمة السوق الاقتصادية المتأبية عن أي تقنين خارجي أو تقنين ذاتي حقيقي، جزراً صغيرة للثراء، كما خلقت وتخلق أزمات متتالية ومتلاحقة. وهي تسير في اتساع تحت السديم، والتطورات العلمية والتقنية، والتطورات الحاصلة في الصناعة وفي الاقتصاد والتقنية والاقتصاد، هذه التطورات التي باتت اليوم تغرق المركبة الفضائية الأرض.

ويمكننا أن نتساءل هل حملت العولمة الاقتصادية من الرخاء والازدهار أكثر مما حملت من البؤس، أم أنها جاءت من البؤس أكثر مما جاءت من الرخاء ومن الازدهار. فأما المؤشرات الكمية الخالصة فلا يوثق بها إلا قليلاً (الدخل الفردي بالدولار)، ولا تُعتبر فيها المناطق التي لا تزال تقوم فيها اقتصاديات للكفاف تعتمد على الزراعة المختلطة وتربية الماشية داخل البيوت. والنظرة المغتبطة إلى العولمة ترى أن ثمة «تناقصاً هائلاً في الفقر» (ب. أ. ديلهوم) : 985 مليون من الأحياء يقل دخلهم [الفردي] عن دولار واحد في اليوم سنة 2004، ومليار و25 مليون في سنة 1990... لكن المؤكد أن الجزر الصغيرة للرخاء التي تتكون في البلاد الغربية توازيها مناطق للبؤس تتكون في مدن الصفيح من حول التجمعات السكانية في شتى أنحاء المعمور. فيحق لنا أن نتحدث عن ارتفاع مهول لـ [معدل] الفقر. وينبغي أن نضيف إليه أنواعاً أخرى من الشقاء البشري بسبب تفكك أشكال التكافل التقليدية وتفشي الفساد

وكل أشكال الجريمة الناجمة عن الفاقة وعن تعاطي المخدرات، بموازاة لزوال أشكال من التعاسة البشرية. فقد باتت تحدث أشكال جديدة من الاحتقار لتخلف أشكالاً قديمة من الاحتقار.

لقد ظهر علم البيئة في صورة أشكال من التلوث والانحطاط المحلي والإقليمي، كما ظهر في صورة تهديد لكوكب الأرض. ونجم هذا التدهور عن التنمية. فالإنفاق على الطاقات الأحفورية وانبعاث الغازات وأشكال التلوث وارتفاع حرارة الأرض والتجمعات السكانية العظيمة والفلاحة الإنتاجية (انحتات الأرض وتدني جودة الهواء وتلوث الماء في الفرشاة المائية والتلوث الناجم عن استعمال المبيدات الحشرية وعن الأسمدة وتقلص التنوع الحياوي وانقراض آلاف من أنواع النباتات) تشكل عمليات مترابطة. وصار الماء، ذلك الملك المشترك، إلى تناقص شديد، وبات يتهدده خطر متفاقم، وصار يتحول إلى تجارة، ويزداد تبديده، وبات مصدراً لاستغلالات جديدة، ومثاراً لمنازعات جديدة، وربما كان سبباً في نشوب حروب في المستقبل.

ولطالما رأى البعض في نمو الديمغرافية البشرية الدليل الظاهر على أخطر مشكلة تواجه كوكب الأرض، لأنها تتسبب في الاكتظاظ السكاني والمجاعات والحروب. والواقع أننا لا نزال نرى نسبة مواليد عالية في الصين وفي أفريقيا (حيث يُتوقع أن يصل تعداد السكان إلى 10 ملايير نسمة في العام 2050)، لكننا نرى كذلك نقصاً في الولادات في أوروبا وفي روسيا. بيد أن السياسات

الرامية إلى إنقاص الولادات في الصين وفي الهند والوفيات الكثيرة من السيدا في إفريقيا وارتفاع معدلات الحياة في البلاد الغربية وفي مختلف بقاع المعمور تخفف من التوقعات الكارثية. وأما من جهة أخرى فإن تدفقات المهاجرين من إفريقيا صوب أوروبا وآسيا وأمريكا الشمالية في سبيلها إلى أن تصير تشكل تنظيمات ديمغرافية. فلا يكمن الخطر في الاجتياحات الحربية، بل المشكلة تكمن في قبول الأمم الغنية بمهاجرين يأتونها بأيد عاملة لتشتغل بالمهن المهجورة، كما تمدها بمساهمة عرقية جديدة. ولنا على ما نقول مثال في كثير من بلدان أمريكيا الجنوبية، وبمعنى من المعاني في فرنسا. على أن إدماج المهاجرين لا يأتي بحل ديمغرافي لنقص الولادات فحسب، بل ويحدث كذلك اختلاطات ثقافية وعرقية صارت مكونات لتطور العهد الكوكبي، بما هو عهد لتجاوز الأعراق المغلقة. لكن في الوضعيات التي تكون فيها الأزمات سبباً وراء نشوء قوميات حادة، وحيث تتضاعف أشكال الانغلاق الثقافي والديني، تصبح أشكال الهجرة المقننة للديمغرافية سبباً في أشكال من الخلل السياسي.

وأدى التغريب المهيمن إلى أزمة في الحضارات التقليدية. فسعت هذه الحضارات إلى تجاوز أزمتها بوصفات مستجلبة من الغرب؛ فقد دخلت الديمقراطية والاشتراكية والرأسمالية والتطور والحلول [المقترحة لحل] أزماتها. فهذا أدى إلى الإمعان

في الارتداد إلى الجذور العرقية والدينية، لكنه ارتداد سيتسبب في أزمات جديدة. وتنضاف إلى ما ذكرنا من أزمات أزمةُ في الحضارة الغربية. فقد أدت هذه الحضارة، بإيثارها جانبَ التقنية وتغليبها جانب الاقتصاد، إلى خلق فاقة وعوز قد آلا إلى شقاء في إطار من الرفاه المادي... وتتضافر أزمة الحضارات مع أزمة الحضارة الغربية. لكن على الرغم من الأزمة التي توجد فيها هذه الحضارة فإنها تبقى النموذج المحتذى في «التنمية»، والذي يرى فيه العُمي المخرج من جميع المشكلات الإنسانية، والحال أن تنمية التنمية تقود، كما رأينا سالفاً، إلى الهاوية.

وتفاقمت أزمة السياسة. فعلى أنقاض الاشتراكية، المدعاة واقعية، في أزمة الفكرة الثورية وفكرة التقدم، وفي التصلب الذي ناب الاشتراكية الديمقراطية، وفي فكرة الحداثة، تلك الفكرة المضطربة، في حين توجد الحداثة في أزمة، وفي العمى الذي أصاب الليبرالية الجديدة التي تزعم أن بمقدورها أن تحل كل المشكلات عن طريق المنافسة و[نظام] السوق، في نطاق من «يومي» السياسات التي اختُزلت في المواءمة وفي الاقتصاد وفي عبادة النمو، لم يعد من أمل في المستقبل، ولم تعد من إرادة لتجديد الديمقراطية، ولاعاد هنالك بحث عن اقتصاد يكون تعددياً، ولا عاد هنالك من رؤية بعيدة المدى، ولا عاد هنالك منظور مستقبلي.

إن عيوب الفكر المهيمن (الذي يكونه نظام تعليمي يمارس تقسيم المعرفة إلى تخصصات مغلقة، ويقتصر عمله كله على

التفرقة والاختزال)، قد أدت إلى العجز عن تمثل العقدة (الجوانب المتعددة والمتعارضة في الظاهرة الواحدة) والإقرار بها، والعجز عن معالجة ما هو أساسي وشامل، أعني معالجة المشكلات الحيوية والمميتة لدينا فرادى وجماعات.

ويوجد كذلك في أساس رؤيتنا الإناسية العجز عن فهم أن الإنسان البيولوجي يمكن أن يكون كذلك إنساناً شيطاناً وأن العقلانية والشيطنة قطبان للفكر الإنساني، وأنه، كما هي العقلانية المغلقة، فإن العقلانية المهيمنة اليوم تخدم، من حيث لا تحتسب الجنونَ الإنساني. لقد انحصرت السلوكات الإنسانية في سلوك الإنسان الاقتصادي الذي لا تحركه غير المصلحة المادية، فيما الأناسي يتصرفون، هم أيضاً، بطريقة عاطفية وانفعالية ووجدانية وكما قال الأب بيير هاسنر «ببطولية».

ومن ههنا كان انهيار الفكر السياسي. فهو قد عمي عن توقع الأزمة التي حصلت في الحضارة، وعمي عن توقع الأزمة الحاصلة على صعيد كوكب الأرض. وهو عاجز عن أن يجيء بمقترحات بديلة للأزمة، وعاجز عن صوغ سياسة حضارية وسياسة إنسانية. ونحن نتحسب، في مطلع هذا القرن الحادي والعشرين، للخسائر التي ستمنى بها الاتجاهات الراديكالية، وخسائر الانهيار، وهي في المحصل خسائر مترابطة ببعضها. ولقد حدثت راديكالية بين الغرب والإسلام، نراها في عودة النزعة الإسلامية الراديكالية إلى الجهاد، وعودة الغرب إلى حرب صليبية بإعلام ديمقراطية.

وكانت [أحداث]11 شتنبر سبباً في ظهور إمبراطوريتين للخير متصارعتين، وإمبراطوريتين للشر، ترميان بعضهما بالشيطنة. حقاً إنه لا يوجد تماثل بين الديمقراطية والشريعة، لكن يوجد تماثل بين مانويتين آخدتين في التطرف والاستقواء. وفي إطار هذه الدائرة المغلقة بات الإرهاب المفرط يشجع على الإرهاب...إننا لم نصل بعد إلى الوقت الذي تصير فيه القاعدة تستعمل السلاح النووي، لكنه شيء قد بدأ يلوح وشيكاً.

إن بين الإسلام والغرب اختلافاً تاريخياً كبيراً؛ يتمثل في القرون الثلاثة التي كان فيها دخول اللائكية إلى الغرب ودخول تعدد الأفكار والتفكير الحر والفكر النقدي والنقد الذاتي. فالاختلاف كبير بين الماضيين والحاضرين وبين استذكار أمجاد الماضي وانحطاط الحاضر في الإسلام والهيمنة التي صارت للغرب على بلدانه في الوقت الحاضر. والعالم الإسلامي يرزح تحت ثقل الفشل الذي منيت به الديمقراطية والاشتراكية فيه وثقل التبعية والخضوع في كل مواجهة للمعاملة غير العادلة والكيل بمكيالين مثلما هو حاصل بين إسرائيل وفلسطين.

إن عدم القدرة على الوصول في الوقت المناسب إلى سلام تفاوضي يتسبب على الدوام في تدهور تاريخي. ومن قبيل ذلك أن عجز الحكومة الاشتراكية الفرنسية عن الوصول إلى سلام تفاوضي مع التمرد الجزائري قد كان فيه تهديد لفرنسا في مرتين اثنتين بقيام ديكتاتورية عسكرية كانت ستكون على قدر ديكتاتورية

بينوشي فظاعة، وما صرفتها عنها غير العبقرية السياسية التي تحلى بها دوغول. ولقد قاد ذلك العجز من الحكومة الجزائرَ المستقلة إلى نظام كلياني وتردى بها إلى حرب أهلية طالت بها عقوداً. والصراع الإسرائيلي العربي يقود إلى تدهور الديمقراطية الإسرائيلية وإلى تعزيز القومية العسكرية والدينية، ويؤدي في فلسطين إلى صعود حركة حماس على حساب الحزب الوطني لعرفات، وإلى الصراعات الداخلية التي لا تزال مستعرة منذئذ.

هذا التدهور ينضاف إليه التدهور الحاصل في العراق وفي أفغانستان، وتدهور محتمل في باكستان وفي إيران وهذه العوامل كلها تزيد في إحكام الدائرة المغلقة لصراع الخير والشر.

وبدأ خطر جديد في التفاقم بنشوب حرب عند نهاية شهر شتنبر من العام 2007. فقد عن لجورج دابليو بوش يدفعه الصقور الأمريكيون الذين لا يزالون محيطين به، أن يهاجم الصناعات النووية الإيرانية؛ عسى أن يكون له في ذلك العمل تعويض عن الفشل الأمريكي في العراق، ويكون فيه تقوية لإسرائيل بالقضاء على النفوذ الإيراني على حزب الله اللبناني، وعلى الشرق الأوسط عامة، وهو عمل كانت سترحب به الممالك البترولية ومصر السنية ولربما كان سيكون فيه سقوط لنظام آيات الله.

وقد رأى الداعون إلى الحرب أن تلك العملية ربح كلها، لكن عجزوا أن يستبينوا المخاطر التي كانوا سيطلقون لها العنان. إن ذلك الحساب يهون من أمر ما قد ينجم عن تدخلٍ عسكري: تدهور

متزايد في العلاقات بين الغرب اليهودي والمسيحي وبين الشرق الإسلامي، وسيزيد ذلك التدخل من الهوة القائمة بين الشيعة والسنة، الذين باتوا اليوم متحدين بوعي إسلامي مشترك، بدل أن يخفف منها. وربما أدى ذلك التدخل إلى تقوية نظام آيات الله بدلاً من أن يؤدي إلى إسقاطه. وسيشجع القاعدة وسائر الحركات الإرهابية الجهادية. وستكون فيه تقوية للوحدة الإسلامية، وإن خيِّل للمشجعين عليه أنه ستزيدها انقساماً على نفسها. وستتفاحش الدائرة المغلقة للإرهاب وإرهاب الدولة وستزداد اتساعاً. وستصير الأنظمة والديكتاتوريون شديدو الضعف في العالم العربي إلى مزيد من الضعف، بدلاً من أن يزدادوا قوة في انخراطهم في التدخل الأمريكي. وأخيراً، وخاصة، فإن من شأن ذلك التدخل أن يفجر عواقب مترابطة لا عد لها ولا حصر.

حقاً إن الحكومات الأوروبية، في ما عدا الفرنسية، قد وعت بمخاطر التدخل المسلح ضد إيران. وقد عارضته قوى كثيرة. وفي الولايات المتحدة فقد معسكر بوش مصداقيته والمخاطرة العراقية لا تشجع على ركوب مغامرة أخرى. لكن ينبغي القول إن بوش قد دُفِع من قبل أن تنتهي ولايته إلى لعبة بوكر نهائية خيِّل إليه أنه سيستعيد فيها قوته. ومهما كان مدَّعو دواعي الاستعداد للقتال قلة فإنهم يوجدون في صلب السلطة في الولايات المتحدة وفي إسرائيل، وقد باتوا اليوم في قلب السلطة في فرنسا. وفوق ذلك، وبوجه خاص، فإن يقين الرئيس الإيراني بعجز الولايات

المتحدة عن التدخل [العسكري في إيران] يشجعه على مواصلة استفزازاته، وتمنحه الشعور نفسه بالمناعة الذي كان يساور صداماً. هذه العوامل كلها تزيد في إطالة عمر الدائرة المغلقة التي تقود إلى الحرب. وكلما زاد اقتناع الرئيس الأمريكي بـ [قدرته على تحقيق] نجاح يسير ومربح من ضربه إيرانَ إلا زاد اقتناع الرئيس الإيراني بأن الولايات المتحدة لن تقدم على قصف بلاده، وزادت الاحتمالات بنشوب حرب. والواقع أن الاستعدادات العسكرية الأمريكية [للحرب] قد أوشكت على الانتهاء، وكما كان قبل اندلاع حربيّ الخليج الاثنتين فقد بدأ الإعداد النفسي للرأي العام الغربي، ومنه الفرنسي، بأبواق تدعو إلى فكرة حرب، تعقبها تراجعات مريحة عن فكرة المفاوضات. والسؤال [المطروح] هو هل سيتم التدخل العسكري ضد العراق كما هو متوقع له، أم أنه سيلقى المنع؟. والراجح أن استفزازاً يقع على المصالح الخاصة الأمريكية أو اعتداء جهادياً [على أمريكا] سيكون مفجراً للتدخل [العسكري]. ومن الواضح أنه إذا اندلع النزاع فستزداد سرعة التسابق صوب الهاوية.

وهكذا فالعداء الذي يترسخ ويتسع من غير أن يقابلَ بردود أفعال أو يقابل بأفعال للقضاء عليه، يزيد في مفاقمة الأزمة السياسية وأزمة الوعي وأزمة الفكر وأزمة الحضارة، وتتضافر هذه الأزمات مع سائر الأزمات الأخرى فتشكل الأزمة الأرضية الهائلة التي تسير إلى تعمق وتفاحش. فهل إن الأزمة التي تسير إلى تفاقم تؤدي إلى كارثة أم تؤدي إلى تجاوز؟

وهل ترانا نمضي صوب كارثة تذكرنا بتلك الكارثة التي أوشكت تمحق الحياة من على وجه البسيطة في نهاية العصر الحجري الأول؟ وكان أن كُتبت النجاة لبعض الأنواع النادرة، ثم ظهرت أنواع جديدة. فهل سيُكتب للبشرية أن تتحاشى الكارثة أم سيكون انطلاقها مجدداً من تلك الكارثة؟

ولقد صرنا ندخل في بدايات فوضى. وقد تكون الفوضى مدمرة، وقد تكون ولوداً، وربما كانت تلك الفرصة الأخيرة في الخطر الأخير.

وغدت الكلمتان «الإصلاح» و«الثورة» اليوم غير كافيتين وربما صار الأفق الوحيد المتاح للخلاص هو التحول.

لقد سبق لنا أن قلنا في النص الأول «هل نسير إلى الهاوية؟»: «متى أصبح نظام من الأنظمة عاجزاً عن معالجة مشكلاته الحيوية فإما أن يتفكك، وإما أن يكون قادراً، في تفككه نفسه، على أن يتحول إلى نظام متحول شديد الغنى، وقادر على معالجة مشكلاته. ومن ههنا تظهر فائدة الفكرة القائلة بالتغذية الاسترجاعية. ومن المحتم لهذه التغذية الإسترجاعية الإيجابية أن تؤدي في العالم الفيزيقي إلى التحلل أو إلى الانفجار. وأما في العالم البشري، وكما أشار ماغورو ماروياما، فإن التغذية الاسترجاعة الإيجابية تقوض بنيات قديمة بالية، وربما كانت باعثاً على ظهور قوى للتحول والتجدد».
ولنا في تحول الدودة إلى فراشة استعارة جديرة بالاعتبار. فعندما تدخل الدودة في الشرنقة تبتدئ عملية من التدمير الذاتي لجسم

الدودة فيها، ويتم في تلك العملية كذلك تكون جسم الفراشة الذي هو الجسم نفسه وجسم آخر غير جسم الدودة في وقت واحد. وذلك هو التحول. إن تحول الفراشة هو تحول ما قبل منظم، وأما تحول المجتمعات البشرية إلى مجتمع عالمي فهو شيء صدفوي وغير يقيني ومرتهن بمخاطر الفوضى، مع أنه شيء لازم له».

إن بوادر التحول كثيرة ومتعددة، وقد مر بنا من قبل أن تلك البوادر توجد في جانب العلوم والتقنيات كما توجد في جانب علم الحياوة والتواصل... والتبادلات الحضارية تخلق بوادر للتكافل ثم تتواتر شتى أنواع الاختلاطات، فتطالعنا من كل الأنحاء آمال في حضارة مختلفة وحياة مختلفة.

وبذلك فإن هذه العملية تحمل في نفسها وعداً ووعيداً. فنكون نسير إلى الهاوية، أو إلى التحول. أو ربما نحن نتجه من أحدهما إلى الآخر.

وتلك معركة جديدة ورائعة في صلب البشرية نفسها بين الإنسان الحكيم *homo sapiens* والإنسان المعتوه *demens homo* فتسخَّر العقلانية المنغلقة لخدمة الإنسان المعتوه ويُسخَّر الحب لخدمة الإنسان الحكيم...

وأياً ما يكن فينبغي لنا أن نقلع عن الحلم بعالم يكون لنا التحكم فيه. وقد رأينا كيف أن الجراثيم والفيروسات تدلنا على أنها تخرج وقد ازدادت قوة بفعل تلك الأشياء نفسها التي كان

يُسعى بها إلى القضاء المبرم عليها. وستظل الصيرورة تحبل على الدوام بمجازفات ومخاطر وتقلبات لكن يمكنها أن تنطوي كذلك على قدرات إبداعية وتطور للفهم والإدراك والحِلم والصلاح ووعي إنساني جديد.

شتنبر 2007

فهرس

هل نسير إلى الهاوية؟

يسعى هذا الكتاب إلى وصف سيرورة العولمة التي تعتبر أسوأ شيء (إذ صارت تحط من شأن التسابق «صوب الهاوية» بعد أن أطلقته) وأفضل شيء (فلأول مرة في التاريخ يمكّن لنا المصير الأرضي المشترك أن نتصور «أرضا وطناً» لا تلغي أوطاننا بل تجمعها وتحتويها). والكتاب يصور أوجه التعقد في السيرورات، ويقر بالجوانب الإيجابية فيها، مثلما يكشف عن خصائصها السلبية. وهو يبين أن المحتملات كارثية، لكنه ينوه إلى أن غير المحتمل قد وقع في التاريخ. وينوه كذلك إلى أننا "حيثما نعتقد بوجود المخاطر فهنالك يوجد كذلك ما ينقذ ويخلّص"، بمعنى أن المخاطر التي صارت تزداد تبدياً قد باتت تسعف كذلك على استيعائها بأوجه متعددة، وهو وعي ربما كان باعثاً على الأعمال المخلِّصة منها.

وإنني لسعيد بصدور هذا الكتاب في المغرب الذي لي فيه أصدقاء كثرٌ. وإن من شأن هذه الترجمة العربية كذلك أن تتعدى نطاق المغرب فتعود عليَّ بأصدقاء جدد سيجدون في هذا الكتاب تعبيراً عن تساؤلاتهم وترجمة لانشغالاتهم. وإنني لعلى بينة من الظلم الواقع في عدم تفهم الغرب للعالم العربي والإسلامي، فلذلك تراني لا أفتأ أعمل من أجل إحقاق العدالة ومدِّ جسور التفاهم بين الشعوب.



ANDRÉ FOUGERON :
CIVILISATION ATLANTIQUE.
1953

ISBN 9981-25-816-4

